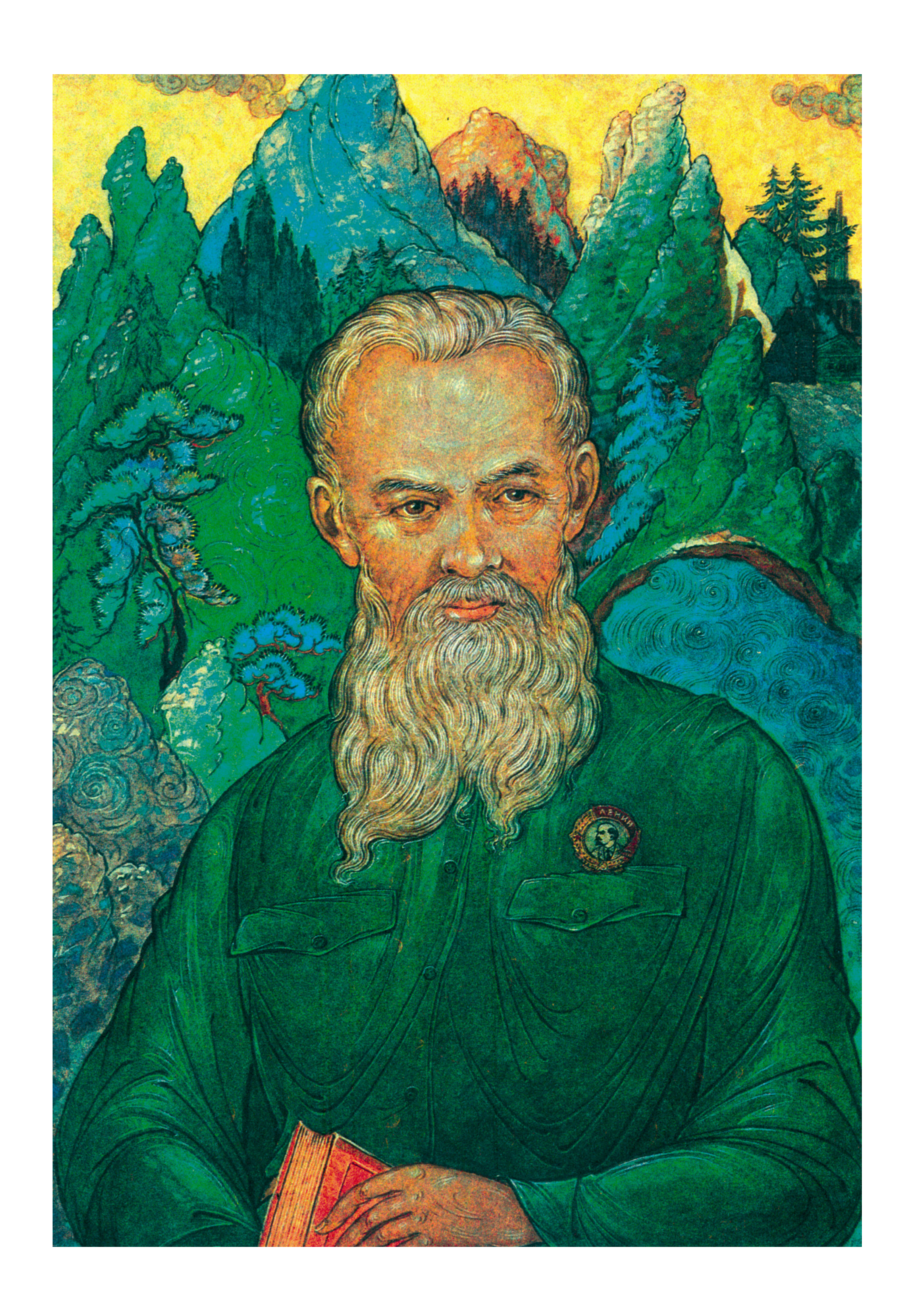
الصندوق الحجري الأخضر

مجموعة قصصية للأطفال والناشئين

من الأساطير الشعبية الروسية في جبال الأورال



باڤل بطرس باجوف

الصندوق الحجري الأخضر

مجموعة قصصية للأطفال والناشئين

من الأساطير الشعبية الروسية في جبال الأورال

ترجمة: ريما علاء الدين

الفهرس

مقدمة

ولد الكاتب السوفيتي البارز بافل بطرس باجوف في عام ١٨٧٩ وتوفي في عام ١٩٥٠، وكان ينتمي إلى الطبقة العاملة الأصيلة في جبال الأورال، وقد توالى على عائلته عدد من الأجيال من حرفيي استخراج المعادن وتصنيعها.

ارتبط الإبداع الأصيل عند باجوف مع حياة عمال المعادن في الأورال، وكانت تجذبه دائماً مواهب هذا الشعب وأسلوب معيشته وطباعه وعاداته. أصدر مجموعته القصصية "الصندوق الحجري الأخضر" في عام ١٩٣٩، وحصلت هذه المجموعة على جائزة الاتحاد السوفيتي للأدب في عام ١٩٤٣ ودخلت في مجموعة كنوز الأدب الوطني.

إن الموضوع الرئيسي لمجموعة قصص "الصندوق الحجري الأخضر" والتي عمل الكاتب على تأليفها بدءاً من عام ١٩٣٦ وحتى نهاية أيامه، هو موضوع العمل المبدع وحياة الطبقة الكادحة.

فقد كان الجبل النحاسي المدعو باسم "غوميشكي" أحد أقدم مناجم استخراج النحاس ومركباته وخاصة النحاس الكربوني الذي هو الحجر الأخضر أو الدهنج، وتم اكتشاف هذا المنجم في عام ١٧٠٢ من قبل الفلاحين والحرفيين العاملين في استخراج المعادن عند الإقطاعيين، وكانت العائلة الإقطاعية المالكة لهذا المنجم تمتلك سلطة قوية ومكانة مقربة من الأسرة الحاكمة في روسيا القيصرية، وكانوا يحاولون استغلال تلك الثروات والقوى العاملة الواقعة ضمن قانون العبودية أكبر استغلال، وكان العمال والحرفيون والفلاحون يتعرضون لظلم شديد ويعملون يومياً في المناجم الجبلية عملاً شاقاً.

تشريت قصص باجوف المواضيع المحورية من طبيعة وشعب وصور خيالية وصبغة من الأساطير الشعبية.

ففي جبال الأورال كانت الأرض نفسها تخلق الأساطير والقصص، حيث كان جوف هذه الأرض يمتلئ بالكنوز التي لا تنضب وكان جمال هذه المناطق الجبلية فريداً من نوعه.

وفي حديثه حول فن الحرفيين في الأورال ومواهب العامل الروسي، يعكس باجوف بهاء وخاصية الأسلوب المعيشي الأصيل عند عمال المعادن والسمات التي تميز هذا المجتمع، ويطرح باجوف أسئلة حول الجمال الروحاني وهيبة الإنسان الكادح. حيث يتغنى الكاتب بعمال العمل اليدوي، فتذهب السمات الأخلاقية كالعدل والصدق والكرامة والإنسانية بجذورها إلى حياة الكادحين، ويعتبر أن العمل هو المصدر الوحيد للسمو الروحاني عند الإنسان.

وتربط قصص باجوف ربطاً وثيقاً بين الحياة المهنية والمهارة الحرفية وبين سعادة الإنسان.

وتمثل الشخصيات الخيالية في القصص قوى الطبيعة، تلك الطبيعة التي لا تتقاسم بأسرارها إلا مع الشجعان ومحبي العمل وأنقياء النفس. وقد استطاع باجوف أن يسبغ على الشخصيات الخيالية شاعرية عجيبة وصنع لها نفسيات حساسة ومعقدة.

بنيت لغة وأسلوب قصص "الصندوق الحجري الأخضر" على موسيقى الألفاظ وجمال الصورة والاستعارات الزاهية وجمال اللغة الروسية الشعبية. وكانت قصص باجوف نموذجاً للاستخدام الماهر للغة الشعبية.

عكس باجوف في قصصه محبته الكبيرة للشعب الكادح واعتزازه بجمال أرض وطنه.



سيدة الجبل النحاسي

ذهب مرة اثنان من عمالنا لتفحص العشب، وكانت أرضهما بعيدة نحو الشمال، وكان اليوم يوم عيد والحر شديداً. كان الرجلان من عمال المعادن يستخرجان الحجر الأخضر الخام وكل ما يصادفانه من أحجار كريمة ومعادن ثمينة.

أحدهما كان شاباً عازباً والآخر كان أكبر قليلاً خجولاً وخائفاً وذا جسم نحيل ودائم السعال.

كانت الغابة جميلة والطيور تغرد سعيدة والأرض تبعث برائحتها العطرة، إلا أن الحر كان شديداً. وصل الرجلان إلى المنجم حيث كان يتم استخراج الحديد الخام، واستلقيا متعبين على العشب في ظل شجرة كبيرة وغرقا في نوم عميق. وبعد فترة شعر الرجل الشاب وكأن شخصاً دفعه في خاصرته فاستيقظ فوراً ونظر حوله فرأى أمامه امرأة جالسة فوق كومة من المعدن وقد أدارت ظهرها لهما، وكانت جديلتها الطويلة تشير إلى أنها صبية شابة. كانت الجديلة ذات لون أسود يميل إلى الأزرق وذات لمعة معدنية، ولم تكن تتمايل كجدائل الفتيات بل كانت ملتصقة بظهرها ثابتة بلا حراك، وفي نهايتها شرائط حمراء وخضراء لامعة ترن رنة معدنية وكأنها من النحاس المصفح. جلس الشاب يتأمل الجديلة بإعجاب وتابع يلاحظ في

فكره صفات الفتاة، حيث كانت متوسطة الطول ومتناسقة القوام، تمتلئ حيوية ونشاطاً فلا تبقى في مكانها أبداً، تنحني للأمام وكأنها تبحث عن شيء فوق الأرض ثم تنحني للخلف وتتحرك بسرعة خاطفة ولم يكن باستطاعته أن يشبهها إلا بالزئبق في حيويتها ونشاطها، وسمعها تتمتم بكلمات بلغة غريبة ولم يعرف مع من تتحدث، وكانت تضحك تارة فربما كانت تشعر بالمرح.

أراد الشاب أن ينطق بكلمة وفجأة استدرك نفسه قائلاً: يا أماه.. كيف لم أعرف أنها السيدة نفسها، فهذه الثياب التي عليها، كيف لم ألحظ فوراً؟ إنها جديلتها التي سحرتني.

وكانت ثياب الفتاة فعلاً غريبة لا يمكنك أن تجد لها مثيلاً في العالم، فقد كانت من الحجر الأخضر الذي يبدو كالحرير.

ففكر الشاب في نفسه: "يا لها من مصيبة كيف لي أن أهرب دون أن تلاحظني"، فقد سمع من الشيوخ أن سيدة الحجر الأخضر تحب أن تجرب سحرها وحكمتها على الناس. وما إن فكر بذلك حتى التفتت إليه مباشرة ونظرت إليه بمرح ثم ابتسمت وقالت مازحة: ما بالك يا ستيبان، تنظر إلى جدائل الفتيات؟ اقترب أكثر لنتحدث قليلاً.

خاف الشاب ولكنه حاول ألا يظهر خوفه، فاستجمع شجاعته وقال لنفسه: "رغم أنها لغز إلا أنها فتاة، ومن المعيب علي كشاب أن أخجل وأخاف من فتاة".

ليس لدي متسع من الوقت للحديث... قال الشاب – فقد نمنا كثيراً وعلينا أن نذهب لتفحص العشب.

فضحكت الفتاة وقالت: يكفيك تصنعاً، تعال أقول لك فلدي عمل لك.

فرأى الشاب أنه لم يبق أمامه إلا الاقتراب منها، فاتجه إليها، ولكنها أشارت له بيدها أن يدور حول المنجم من الجانب الآخر، فسار في الجانب الآخر ورأى عدداً هائلاً من السحالي، وكانت متنوعة و مختلفة فيما بينها، فبعضها أخضر اللون وأخرى

زرقاء وبعضها ذات نقاط ذهبية، وبعضها تلمع كالزجاج الملون وبعضها باهتة كالعشب وأخرى لها نقوش جميلة.

فضحكت الفتاة وقالت: لا تفرق جيشي يا ستيبان، فأنت كبير وثقيل بينما هم صغار... ثم صفقت بيديها فتفرقت السحالي مفسحة أمامه الطريق.

فاقترب الشاب منها وتوقف، فعادت وصفقت بيديها وقالت ضاحكة: والآن لم يعد لديك مكان تدوس عليه، فإذا دست على خدمي ستأتيك المصيبة. فنظر إلى الأسفل ورأى السحالي قد تجمعت حوله كالنقش على الأرض حتى لم يبق مكان يظهر فيه التراب.

فنظر ستيبان وقال في نفسه "يا إلهي إن هذه السحالي من النحاس الخام ومن جميع الأصناف وهي مصقولة بشكل جيد وتلمع لمعة قوية.

هل عرفتني الآن يا ستيبان؟... سألت سيدة الحجر الأخضر وضحكت ضحكة رنانة وبعد فترة عادت وقالت: لا تخف فلن أؤذيك.

فانزعج الشاب لأن الفتاة تسخر منه وصاح في وجهها قائلاً: إنني لا أخاف من شيء هنا فأنا أعمل في المناجم الجبلية.

حسناً... أجابت الفتاة – فأنا بحاجة لشخص مثلك لا يخاف شيئاً. فغداً عندما يأتي العمال إلى الجبل سيمر المشرف على عمالكم، فقل له دون أن تنسى كلمة مما سأقول لك: "إن سيدة الجبل النحاسي أمرتك بالرحيل عن هذا المنجم. فإذا تابعت تدمير قمة جبلها المعدنية، فإنها ستغرق النحاس كله في أعماق الأرض ولن يكون بمقدورك استخراجه"...قالت ذلك وتابعت: هل فهمت ما قلته يا ستيبان؟ فقد أخبرتني أنك تعمل في الجبال وأنك لا تخشى أحداً أليس كذلك؟ إذاً قل للمشرف ما أمرتك به، والآن اذهب واحرص على ألا تخبر شيئاً للرجل الذي معك، فهو رجل خائف ولست بحاجة لإقلاقه وإدخاله في هذه القصة.

ثم صفقت ثانية بيديها فهربت السحالي واختفت، ونهضت الفتاة على قدميها

وتحولت إلى سحلية لها رأس فتاة وعندما وصلت إلى قمة الجبل التفتت وقالت: لا تنس يا ستيبان ما قلته فإن فعلت ذلك صرت لك زوجة.

فبصق ستيبان غاضباً وقال: يا له من قرف أن أتزوج سحلية.

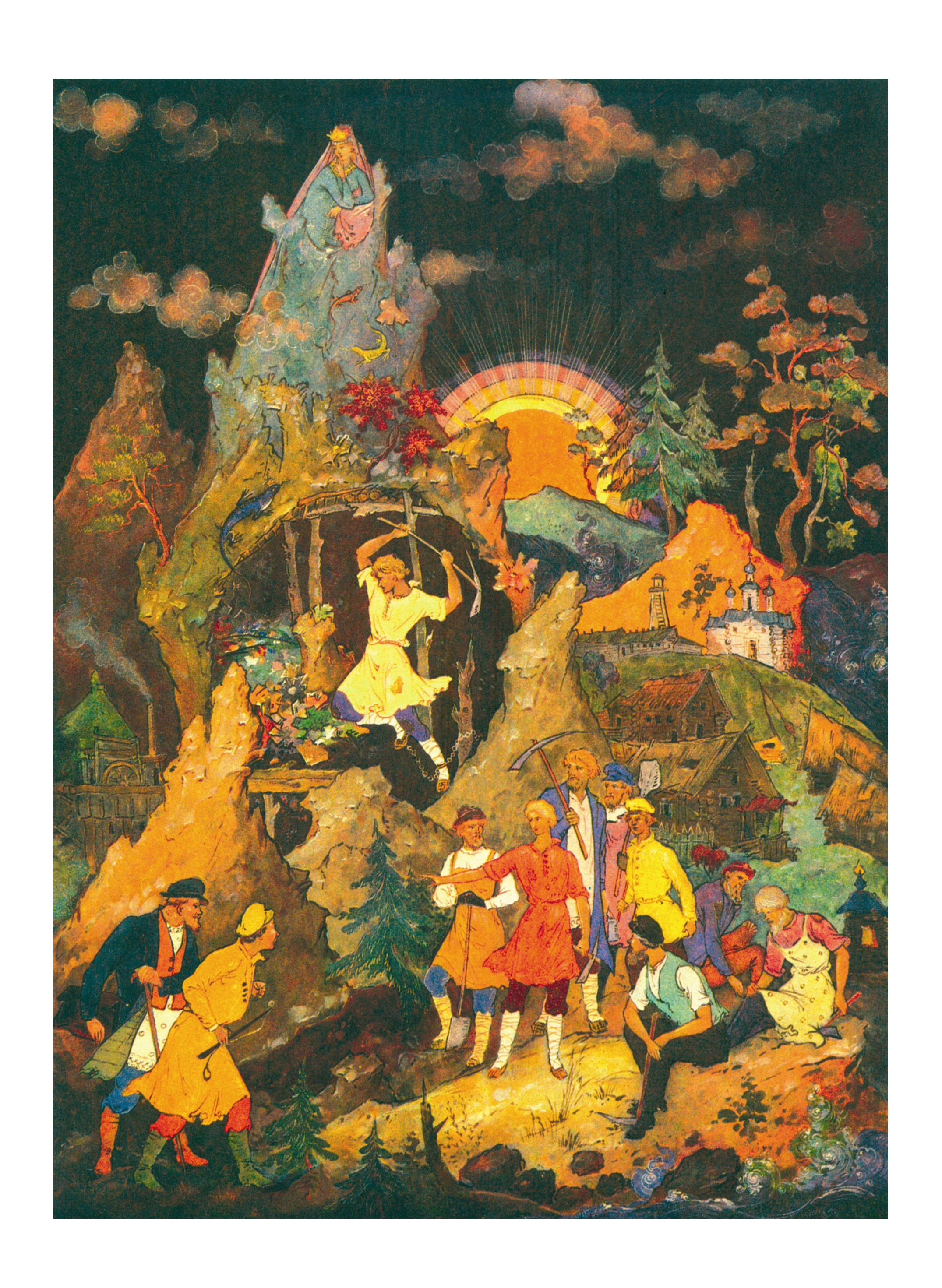
فرأته الفتاة وهو يبصق وضحكت كثيراً وقالت: حسناً سنتحدث لاحقاً. ربما تغير رأيك فيما بعد. ثم اختفت مسرعة وراء الجبل. وبقي الشاب وحيداً وانتشر الهدوء في المنجم ولم يسمع إلا شخير صديقه من خلف كومة المعدن، فأيقظه وذهبا لتفحص العشب، وعند المساء عادا إلى المنزل وكان أمر واحد يشغل بال ستيبان وهو كيف سيقول للمشرف هذا الكلام فقد كان المشرف لئيماً وحقوداً. كما أن عدم قيامه بما أمرته الفتاة أمر سيئ أيضاً فهي كانت سيدة المناجم كلها، وكان بمقدورها أن تحول الحجارة الكريمة والمعادن الثمينة إلى تراب، وعندها سيجبره المشرف على العمل ليلاً نهاراً لاستخراج الكمية المتوجبة عليه يومياً.

والأسوأ من ذلك أنه خشي أن يبدو متباهياً بنفسه أمام الفتاة، ففكر في نفسه وضحك ثم قال: حسناً سأفعل كما أمرتني.

وفي صباح اليوم التالي اجتمع العمال في الساحة بلمح البصر وجاء المشرف على العمل في المناجم، فخلع العمال قبعاتهم ووقفوا صامتين، فاقترب ستيبان من المشرف وقال: قد رأيت البارحة سيدة الجبل النحاسي، وقد أمرتني بأن أنقل لك أمرها بالرحيل عن هذا الجبل، وأنك إذا دمرت قبعة الجبل المعدنية فإنها ستُغرِق كل النحاس في أعماق الأرض ولن يعود بمقدور أحد استخراجه.

فوجئ المشرف بهذا الكلام حتى أن شاربه رجف، وصاح في وجه ستيبان: ما هذا الذي تقوله، هل أنت ثمل أم فقدت رشدك؟ فعن أي سيدة تتحدث وكيف تجرأت لتقول لي هذا الكلام؟ سأعاقبك وأجعلك تهلك في الجبل.

افعل ما شئت... قال ستيبان – لكنني نقلت لك قولها.



اجلدوه... صاح المشرف غاضباً – ثم أنزلوه في عمق الجبل وقيدوه في طرف المنجم المخصص للتعدين، وأطعموه طعام الكلاب كي لا يموت من الجوع وطالبوه بأداء عمله اليومي وتقديم الكمية المطلوبة من المعادن والحجارة الكريمة ولا تتساهلوا معه، فإذا اعترض اجلدوه بلا رحمة.

نفذ العمال أمر المشرف وقيدوا ستيبان في الجبل في أسوأ مكان نفذ منه المعدن والحجر منذ زمن بعيد وانتشرت فيه الرطوبة التي تمنع من العمل. فقد كان الزمن زمن إقطاع ولم يكن للفلاح والعامل أي رحمة فكان الإقطاع يستغلون الإنسان أشد استغلال.

وقبل أن يغادر نائب المشرف قال بجفاء: يمكنك أن ترتاح هنا قليلاً، لكنني سأعود لأطالبك بالكمية المطلوبة منك من الحجر الأخضر النقي... وذكر له كمية غير معقولة. ولم يبق أمام ستيبان إلا أن يأخذ المعول ويبدأ العمل، فقد كان شاباً نشيطاً. وما أن ضرب ضربة بمعوله حتى بدأ الحجر الأخضر النقي يتساقط أكواماً وكأن شخصاً كان يدفعه بيديه من خلف الجدار، كما أن الرطوبة اختفت من هذا المكان تماماً وأصبح جافاً وصالحاً للعمل.

ففكر ستيبان في نفسه: "لا شك أن السيدة تذكرتني وأرسلت لي مساعدتها". وما أن فكر بذلك حتى أضاء المكان من حوله وظهرت السيدة أمامه.

أحسنت يا ستيبان... قالت السيدة – أنت رجل شجاع لم تخش المشرف، فلنذهب لرؤية صداق عروسك، فأنا أيضاً لا أتراجع عن كلمتي.

ثم عبست السيدة وكأنها انزعجت من أمر ما، وصفقت بيديها فحضرت السحالي ونزعت القيود عن ستيبان، فأمرتهم السيدة قائلة: حضروا كمية مضاعفة من الحجر الأخضر من الصنف الأول واتركوه في هذا المكان... ثم استدارت نحو ستيبان وقالت: حسناً أيها العريس فلنذهب لرؤية صداق عروسك.

وهكذا سار ستيبان خلف السيدة وبدأت جدران الجبل تنفتح أمامهما، فتكشف عن صالات كبيرة تحت الأرض من ألوان مختلفة خضراء وصفراء وذهبية ونحاسية.

وكلما دخلت السيدة إلى صالة تغير لون ثوبها فتارة يبدو كالزجاج وتارة يبهت لونه ثم يتحول إلى الماسي والأحمر النحاسي والأخضر الحريري.

وبعد سير طويل توقفت السيدة وقالت: إن ما تبقى من الصالات هي صفراء ورمادية منقطة تمتد لمسافات بعيدة فلا داعي لتفحصها، لكننا الآن تحت قمة الجبل ولدي هنا أغلى مكان على قلبي.

ورأى ستيبان أمامه صالة ضخمة مليئة بالأسرة والطاولات والكراسي وجميعها من النحاس الملكي. وجدران الصالة من الحجر الأخضر المرقش بالألماس والسقف أحمر غامق تزينه أزهار نحاسية.

دعنا نجلس هنا لنتحدث... قالت السيدة.

فجلسا على الكراسي وسألته السيدة: هل رأيت صداقي؟

رأيته... أجاب ستيبان.

فما رأيك بالزواج؟

لم يدر ستيبان بماذا يجيب، فقد كانت لديه عروس، وكانت فتاة لطيفة ويتيمة، وهي طبعاً لا يقارن جمالها بجمال السيدة.

وكان ستيبان إنساناً عادياً وبسيطاً فتردد قليلاً ثم قال: إن صداقك يليق بالملوك، بينما أنا عامل بسيط.

لا تراوغ يا صديقي... قالت السيدة – بل أجبني بصراحة، هل تأخذني زوجة أم لا؟... وزاد العبوس على وجهها.

فأجابها ستيبان: لا أستطيع أن أتزوجك لأنني أعطيت كلمة لأخرى.

قال ذلك وفكر في نفسه: "لا شك أنها ستغضب بشدة".

لكنه فوجئ بأنها بانت مسرورة وقالت: أحسنت يا ستيبان. قد مدحتك مرة على شجاعتك والآن أمدحك مرتين لأنك لم تطمع بأملاكي ولم تستبدلها بحبيبتك

آنستاسيا وهذه هدية تهديها لعروسك... وأعطته صندوقاً من الحجر الأخضر مليئاً بالمجوهرات النسائية من خواتم وأقراط تليق بالعروس.

أخذ ستيبان الصندوق وقال: وكيف سأصعد إلى الأعلى وأنا أحمل هذا الصندوق؟ سيأخذه المشرف مني.

لا تشغل بالك بهذا، فأنا سأتدبر كل شيء وأحررك من المشرف وستعيش حياة رفاهية مع زوجتك الشابة، لكن إليك أمري بألا تتذكرني أبداً ولا تعد إلي ثانية وسيكون هذا اختباري الثالث لك. والآن تفضل لتناول الطعام.

فصفقت بيديها ثانية وحضرت السحالي وملأت الطاولة بأصناف الأطعمة اللذيذة. ثم قالت السيدة: والآن وداعاً يا ستيبان وحافظ على ألا تتذكرني... وسالت دموعها من عينيها وتحولت إلى أحجار كريمة صغيرة، فأعطته إياها قائلة: "إن الناس يدفعون مالاً لقاء هذه الأحجار الكريمة فإذا بعتها تصبح غنياً".

ثم مدت يدها لتعطيه الأحجار فشعر بدفئها ورأى أنها حزينة لفراقه.

أخذ ستيبان الأحجار وانحنى للسيدة مودعاً وقال: إلى أين أذهب؟ وبدا هو الآخر حزيناً.

فأشارت إليه بإصبعها وانفتح أمامه ممر طويل ومضيء، فسار ستيبان في هذا الممر ورأى الكثير من كنوز الجبل ووصل أخيراً إلى المكان المخصص له. فانغلق الممر خلفه وعاد كل شيء إلى طبيعته. وجاءت سحلية وقيدت رجليه بالسلاسل، وتحول الصندوق الثمين إلى صندوق صغير جداً خبأه ستيبان في جيبه. وبعد فترة جاء المشرف وكانت نيته أن يسخر من ستيبان لكنه فوجئ بكمية الحجر الأخضر التي تفوق الكمية المطلوبة وكان من الصنف الأول ففكر المشرف في نفسه: "ما هذا .. من أين جاء بكل هذه الكمية من الحجر الأخضر؟" ثم تفحص المكان كله وقال: في هذا المكان بمقدور أي شخص أن يستخرج الحجر الأخضر... وأخذ ستيبان إلى مكان آخر نفذ منه الحجر الأخضر، وجاء بابن أخيه ووضعه في هذا المكان.

وفي اليوم التالي بدأ ستيبان عمله وعاد الحجر الأخضر يتساقط كما حدث في اليوم السابق وكان من الصنف الأول، بينما لم يستطع ابن أخ المشرف أن يستخرج شيئاً فأسرع نائب المشرف إلى المشرف وقال له: لا شك أن ستيبان باع روحه للقوى الخفية.

فأجاب المشرف: هو حر بذلك ونحن علينا أن نبحث عن ربحنا ومصلحتنا. قل له إننا سنمنحه الحرية إذا وجد كومة هائلة من الحجر الأخضر وحدد له الوزن المطلوب لتلك الكومة.

فجاء نائب المشرف إلى ستيبان ونقل إليه أمر المشرف وتم إيقاف جميع الأعمال في الجبل. وفكر المشرف في نفسه: "من يدري ربما كان هذا الأحمق يقول الحقيقة، كما أن الأحجار بدأت تخرج مع النحاس وهو أمر سيئ للغاية".

بعد أن سمع ستيبان أمر المشرف قال: لا أحد يرفض الحرية سأحاول جهدي ولكنني لا أعرف إن كنت سأنجح أم لا.

وبعد فترة وجد ستيبان كومة حجرية كهذه، ولكن المشرف ونائبه خدعاه ولم يمنحاه الحرية. وأرسلا رسالة إلى الإقطاعي يصفان فيها كومة الحجر الأخضر التي وجدها ستيبان، فجاء الإقطاعي مباشرة من المدينة واستدعى ستيبان إليه فوراً، وقال: اسمع يا ستيبان إنني أعدك وعد النبلاء بتحريرك من العبودية إذا عثرت لي على حجارة خضراء تكفي لصنع أعمدة لا يقل طولها عن ستة أمتار.

فأجاب ستيبان: قد خدعني أعوانك مرة، وأنا لست متعلماً ولكنني سأطالبك بكتابة وثيقة رسمية أولاً.

فكتب الإقطاعي الوثيقة وأعطاها لاستيبان قائلاً: خذ ولكن ابذل جهدك.

فأجاب ستيبان إجابته المعهودة "سأفعل ما بوسعي". وطالما أنه رأى جوف الجبل كله وعرف أماكن كنوزه والسيدة نفسها كانت تساعده فقد صنع مع العمال من الحجر الأخضر أعمدة وأخرجوها خارج الجبل، فأخذها الإقطاعي مباشرة إلى

المدينة. ومنذ ذلك الحين حصل ستيبان على حريته ولكن كنوز الجبل اختفت كلها وكأنها لم تكن. وكانت الشائعات تقول إن السيدة غضبت لأنهم أخذوا الأعمدة من الجبل.

كما أن ستيبان لم يعثر على سعادته في الحياة، فقد تزوج وأنشأ عائلة وبنى بيتاً كبيراً، وكان من المفترض أن يعيش سعيداً فقد كان لديه كل شيء، ولكنه بدا حزيناً وساءت صحته تدريجياً وأصابه المرض وبدأ يذوب أمام أعين الجميع. وكانت لديه تسلية بعد مرضه وهي الذهاب للصيد، ولكنه كان بحجة الصيد يتجه إلى الجبل دائماً ويجلس هناك حزيناً ولا يجلب معه شيئاً من الصيد إلى بيته وفي إحدى المرات وافته المنية وهو جالس في ذلك المكان فبحث عنه أهله طويلاً ووجدوه ميتاً بجانب الجبل وكانت الابتسامة تغطي وجهه.

وقد روى الأشخاص الذين وجدوه أنهم رأوا بجانب ستيبان سحلية كبيرة خضراء تذرف الدموع وما أن اقترب الناس حتى اختفت وعندما أحضروا الميت إلى المنزل وهموا بغسله رأوا أن إحدى يديه تقبض بقوة على شيء ما ففتحوا يده ورأوا فيها أحجاراً كريمة صغيرة وصاح أحد العارفين: إنه حجر الزمرد النحاسي النفيس، إنها ثروة بقيت لك يا آنستاسيا. من أين له هذه الأحجار؟

فوضحت زوجة ستيبان أن ستيبان لم يتحدث مرة بخصوص أحجار كهذه، فقد أهداها الصندوق الحجري الثمين عندما كان عريساً وكان يمتلئ بالمجوهرات ولكن لم تكن الأحجار بينها.

وعندما هموا بأخذ الأحجار من يد ستيبان تحولت هذه الأحجار الثمينة إلى غبار ولم يعرف أحد من أين حصل عليها. وبعد مدة أخبرهم أحد العارفين بأن هذه الأحجار هي دموع سيدة الجبل النحاسي. إذ لم يبعها ستيبان ولم يخبر أحداً بها وتوفي وهو يمسك بها.

هكذا هي سيدة الجبل النحاسي فالشرير الذي يلقاها يلقى المصيبة والخيّر لا يجد الكثير من السعادة.



الصندوق الحجري الأخضر

بقي عند آنستاسيا أرملة ستيبان صندوق حجري أخضر مليء بالمجوهرات النسائية، من خواتم وأقراط، فسيدة الجبل النحاسي بنفسها أهدت الصندوق لاستيبان، وأوصته أن يهديه لعروسه.

نشأت آنستاسيا يتيمة ولم تعتد على ترف كهذا ولم تكن تحب التزين بالمجوهرات. وقد تزينت ببعض المجوهرات في السنوات الأولى من حياتها مع ستيبان، ولكنها لم تكن سعيدة بها. وكانت تحدث أمور غريبة، فعندما ترتدي المجوهرات في المنزل تبدو وكأن مقاييسها تناسبها تماماً، وما أن تخرج خارج المنزل حتى تبدأ الخواتم تضيق والأقراط تصبح ثقيلة جداً، كما أن المجوهرات كانت فاخرة جداً ولا يرتدي أحد مثلها من جيران وأصدقاء آنستاسيا من الناس العاديين.

وكانت تقول لنفسها: "إذا رأوني أتزين بها سيقولون انظروا إلى هذه الملكة في قريتنا".

كما أن ستيبان لم يجبر زوجته على ارتداء المجوهرات. وقال لها مرة:خبئي هذا الصندوق بعيداً كي لا يجلب لنا الشؤم والمشاكل.

فخبأت آنستاسيا الصندوق في درج الخزانة السفلي، حيث كانوا يضعون

أكياس القنب وأموراً ضرورية أخرى.

وعندما توفي ستيبان ووجدوا الأحجار الكريمة في يده، اضطرت آنستاسيا لإظهار الصندوق الحجري الأخضر للناس. وقام أحد العارفين والذي أخبرها سابقاً بأن الأحجار في يد ستيبان كانت كريمة وثمينة جداً، بتوصيتها عندما ذهب الناس قائلاً: احرصي على ألا تبيعي الصندوق بثمن بخس، فهو يساوي آلافاً كثيرة.

وقد كان هذا الرجل العارف من الأحرار، وكان يعمل مشرفاً في السابق، ولكن الإقطاعي طرده لأنه كان طيباً مع الناس ولا يقسو على العاملين. ولكنه كان يحب شرب النبيذ، وفيما تبقى من أمور كان رجلاً مستقيماً وشريفاً في كتابة الوثائق، وكان الناس يحبونه كثيراً وبقوا يطعمونه حتى آخر أيامه، حيث توفي في مصنعنا هذا.

وقد سمعت آنستاسيا من زوجها أن هذا المشرف مستقيم وذكي وعالم بعمله، ولم يكن يعيبه إلا شرب الخمر. وهكذا استمعت آنستاسيا إلى نصيحته وقالت: حسناً، سأحتفظ بهذه المجوهرات ليوم الحاجة.

وأعادت الصندوق إلى مكانه السابق. وهكذا دفنوا ستيبان ثم اجتمعوا يتذكرونه بعد الأربعين يوماً، وكل شيء تم حسب الأصول. وكانت آنستاسيا امرأة شابة ولديها أملاك، فبدأ الخطاب يتقدمون لخطبتها طالبين يدها، ولكنها كانت امرأة ذكية وكانت تجيب الجميع: حتى ولو كان الزوج الثاني غنياً وطيباً إلا أنه بالنسبة للأولاد يبقى زوج أم.

ومع مرور الوقت تعب الخطاب وتوقفوا عن المحاولة بأنفسهم.

ترك ستيبان أسرته مكتفية مادياً، فالمنزل كان كبيراً ومتيناً وكان عندهم فرس وبقرة ودجاج وزرع وكل ما يحتاجه قاطن القرية. وكانت آنستاسيا امرأة نشيطة تحب العمل، وأولادها صغار ليسوا مدللين. وبقوا يعيشون في اكتفاء ثلاث سنوات حتى نفذت مواردهم، وداهمهم الفقر. فكيف بمقدور أرملة وحيدة وأطفالها صغار أن تقوم بكل شيء بنفسها، فكسب المال أمر ضروري. وهنا بدأ أقاربها

ينصحونها ببيع الصندوق، ويقولون: بيعي الصندوق، فما حاجتك به؟ ولماذا تتركين الخير يضيع هباء. فأنت لا تتزينين بالمجوهرات وابنتك ستكبر مثلك. فهذه المجوهرات تليق بالسادة ولا أحد يرتديها بين الفلاحين والعمال. بيعي الصندوق وعيشي من ماله.

وما إن بدأت آنستاسيا تقتنع حتى ظهر المشتري مباشرة، وكان من الإقطاع، فعرض مائة روبل وجاء آخر عارضاً مائتين. وكانوا يقولون: إننا نشفق على أولادك لأنك أرملة، فندفع لك هذا المال.

وكانوا يحاولون خداع آنستاسيا، ولكنها كانت امرأة ذكية، فقد حفظت كلام المشرف ولم تبع الصندوق بالثمن البخس. كما أن الصندوق كان هدية من زوجها وذكرى عنه. والأفضل أن تتركه لأبنتها، التي أخذت تبكي وتقول: لا تبيعيه يا أمي، لا تبيعيه، فالأفضل أن أذهب للعمل من أن نبيع ذكرى والدي.

وقد بقي عند آنستاسيا من ستيبان ثلاثة أولاد صبيان وفتاة. وكان الصبيان كبقية الأولاد، أما الفتاة فلم تكن تشبه لا أمها ولا أباها، ومنذ أن كانت طفلة صغيرة كان الناس الذين يرونها يستغربون، فكانت النساء تقول لأمها والرجال يقولون لاستيبان: من أين جئت بهذه الفتاة فشعرها أسود وعيناها خضراوان، وهي لا تشبه بناتنا.

وكان ستيبان يجيب مازحاً: ليس غريباً أن شعرها أسود فوالدها منذ نعومة أظافره يعمل في مناجم الجبال. وعيناها خضراوان تشبهان الحجر الأخضر الذي كنا نستخرجه للإقطاعي. فلا شك أنها ذكرى لي من تلك الأيام.

وكان يدعوها "ذكرى" ويشتري لها دائماً أغراضاً من ألوان خضراء وزرقاء فاتحة.

وهكذا كانت هذه الفتاة الجميلة تكبر تحت أنظار الناس، ولكنها لم تكن تحب التقرب منهم، رغم أن الجميع كان يلاطفها ويسر لجمالها وكان اسمها تانيا. وحتى أشد النساء حسداً كن يتأملن جمالها بسرور. والوحيدة التي كانت تتنهد

هي أم الفتاة، وتقول: نعم إنها جميلة لكن جمالها غريب، وكأن أحدهم استبدل ابنتي بأخرى.

حزنت الفتاة كثيراً على وفاة والدها حتى صارت نحيلة، وكلما تذكرته جلست تبكي حزينة. وعندها خطر لوالدتها خاطر أن تعطيها الصندوق الحجري الأخضر لتلعب بالمجوهرات، فالفتيات الصغيرات تحببن التزين وهكذا صارت تانيا تلعب بالمجوهرات وتتزين. وكان المدهش في الأمر أن الجوهرة التي تضعها يكون قياسها مناسباً تماماً وكأنها صنعت لها خصيصاً. وكانت أمها لا تعرف كيف توضع بعض المجوهرات بينما تانيا كانت تعرف وكأنها كانت ترتديها دائماً. وكانت تقول لأمها: يا أمي كم هي جميلة هدية والدي. والدفء ينبعث منها وكأنها كانت موضوعة فوق المدفأة.

فاستغربت آنستاسيا كثيراً لأنها تتذكر أن المجوهرات كانت شديدة البرودة وكانت الخواتم تضغط على الأصابع والأقراط تزداد ثقلاً، فقالت لنفسها إنه فأل سيئ، وأخذت الصندوق وخبأته، فصارت تانيا تطلب منها منذ ذلك الحين وتقول: أمي دعيني ألعب بهدية والدي.

فيرق قلب آنستاسيا، وتخرج الصندوق من مخبئه وتقول: حافظي على ألا تكسري شيئاً.

وفيما بعد وبعد أن كبرت تانيا، صارت تخرج الصندوق بنفسها، فما إن تغادر والدتها وأخوتها المنزل للعمل في الحقل أو الذهاب إلى السوق، وتبقى تانيا للاعتناء بالمنزل، كانت تنهي الأعمال المنزلية أولا وتنفذ وصايا أمها لها، من تنظيف للأواني والغرف وإطعام للحيوانات المنزلية وتحضير الطعام، ثم تذهب لتلعب بمجوهرات الصندوق وتتأملها بإعجاب وتتزين بها.

وفي إحدى المرات تسلل رجل غريب إلى منزلهم، لربما كان مختبئاً خلف السور منذ بزوغ الفجر، أو أنه تسلل فيما بعد دون أن يلاحظه أحد، فلم ينتبه أحد من الجيران لدخوله أو سيره عبر الشارع. وكان شخصاً غريباً وجاهلاً بهذه المناطق

والأغلب أن أحداً ما دله على المنزل.

فما إن غادرت آنستاسيا، قامت تانيا بأعمال المنزل ثم جلست لتلعب بمجوهرات والدها، فتزينت بها كلها وجلست تتأمل نفسها، وفي تلك اللحظة تسلل إلى الكوخ ذلك الرجل الغريب، فالتفتت تانيا ورأت عند عتبة الباب رجلاً غريباً يحمل فأساً، وكان الفأس ملكاً للعائلة. وقد كان مكانه في زاوية الغرفة وقامت تانيا قبل قليل بتنظيف ذلك المكان ووضعت الفأس فيه. خافت تانيا كثيراً ولم تدر ما تفعل، ولكن ما إن نظر الرجل إليها حتى صاح متألماً وأسقط الفأس من يده وغطى عينيه بيديه وأخذ يئن ويصيح: آه يا إلهي لقد عميت... وتابع يفرك عينيه وهو يقول ذلك.

فرأت تانيا أن الرجل ليس على ما يرام وأخذت تسأله: كيف دخلت إلينا يا عماه، ولماذا أمسكت بالفأس؟

بينما استمر الرجل يئن ويفرك عينيه. فأشفقت تانيا عليه وغرفت دلو ماء وأرادت أن تعطيه للرجل، فابتعد الرجل عنها خائفاً وصاح: لا.. لا تقتربي...

وبقي جالساً عند المدخل وأغلق بظهره الباب كي لا تهرب تانيا، ولكنها وجدت مخرجاً آخر وهربت عبر النافذة وتوجهت إلى الجيران مباشرة. فحضر الجيران وصاروا يسألون الرجل عمن يكون ولماذا جاء إلى هذا المنزل؟ فرمش الرجل قليلاً بعينيه وأخذ يشرح أنه مارق طريق وأراد أن يطلب صدقة، ولكن شيئاً ما أصاب عينيه، وقال: وكأن الشمس ضربتني، وظننت أنني عميت، لربما هذا نتيجة الحر.

ولم تخبر تانيا الجيران عن الفأس والمجوهرات، فظن الجيران: "لا شك أن الأمر بسيط، ولربما نسيت تانيا البوابة مفتوحة، فدخل المارق وحدث معه ما حدث، فماذا لا يحدث في هذا العالم؟".

لكنهم لم يتركوا الرجل يغادر قبل مجيء آنستاسيا، وعندما وصلت مع أولادها روى لها الرجل ما رواه للجيران. فنظرت آنستاسيا حولها ورأت كل شيء في مكانه، فتركت الرجل يذهب، وغادر الجيران أيضاً.

وعندها روت تانيا لأمها كيف كان الأمر. ففهمت آنستاسيا أن هذا الرجل أتى لسرقة الصندوق، ولكن سرقته ليست سهلة على ما يبدو. وفكرت في نفسها: "علينا بحفظ الصندوق في مكان أكثر أماناً".

ثم أخذت الصندوق وخبأته في قبو المنزل. وعندما غادرت الأم ولدها من جديد، ذهبت تانيا لتلعب بالصندوق، فلم تجده في مكانه. فأحست بالأسى الشديد، وفيما هي جالسة حزينة شعرت بدفء غريب قادم من مكان قريب. فتساءلت عن مصدره، وعندما التفتت رأت ضوءاً يخرج من قبو المنزل، فخافت تانيا من أن يكون حريق قد نشب داخل القبو، ورأت الضوء في زاوية من زواياه. فأمسكت بدلو الماء وأرادت أن تسكب الماء على الضوء، وانتبهت إلى أنه لا توجد أي رائحة للحريق ولا أي أثر للدخان. فنزلت إلى القبو ورأت في زاويته الصندوق. وعندما فتحته وجدت أن المجوهرات أصبحت أكثر جمالاً وروعة، وكانت تصدر النور وتلمع بمختلف الألوان، فحملت تانيا الصندوق وأحضرته إلى المنزل، وأخذت تلعب بالمجوهرات حتى ملت.

وصار من عادة تانيا منذ ذلك الحين، أن تلعب بالمجوهرات كلما غادرت أمها المنزل. وكانت الأم تظن في نفسها: "لقد خبأت المجوهرات في مخبأ جيد هذه المرة ولا أحد يعرف مكانه". ولم تسمح آنستاسيا لأقاربها بفتح موضوع بيع المجوهرات، وكانت تقول: عندما نصل إلى أسوأ حال أبيعه.

ورغم صعوبة الظروف المعيشية إلا أنها صمدت، ومرت عدة سنوات أخرى صعبة ومن ثم بدأت الأمور تتحسن. فالأولاد بدؤوا يعملون ويكسبون المال، وتانيا أيضاً كانت لا تجلس بلا عمل، فقد تعلمت خياطة الحرير وتزيين الأقمشة بالخرز، وأصبحت من أمهر الخياطات والحياكات في المنطقة، وكانت أمهر الخياطات حين ترين عملها يستغربن من أين تبتكر هذه النقوش الجميلة؟

وقد جاء موضوع تعلم الحياكة والخياطة صدفة، فقد حضرت إليهم مرة امرأة متوسطة الطول وسوداء الشعر من عمر آنستاسيا، وكان يبدو عليها أنها مسافرة، وطلبت من آنستاسيا قائلة: هل تسمحين لي يا سيدة المنزل أن أبيت عندك ليلة أو

اثنتين؟ فقد تعبت كثيراً ورجلاي لا تحملانني، وما زال الطريق بعيداً.

ففكرت آنستاسيا في البداية أن هذه المرأة أرسلت لتسرق الصندوق، ولكنها رغم ذلك أدخلتها، وقالت: نحن لا نبخل بالمبيت على أحد، فتفضلي، ولكن طعامنا فقير فإن أعجبك البقاء فابقي.

فوضعت المرأة أغراضها وخلعت حذاءها وبدأت تتصرف وكأنها في منزلها. فلم يعجب الأمر آنستاسيا ولكنها لم تقل شيئاً، واكتفت بأن فكرت في نفسها: "يا لها من امرأة غير مهذبة، فلم يمر على وجودها لحظات حتى بدأت تتصرف وكأنها في منزلها".

ولكن المرأة وبعد أن جلست أخرجت أغراضها وأشارت إلى تانيا لتقترب منها وقالت لها: تعالي يا ابنتي وانظري إلى حياكتي وخياطتي، فإن أعجبك العمل علمتك إياه... فهذا العمل يجلب الكثير من المال.

فاقتربت تانيا وأعطتها المرأة قطعة من القماش المطرز وعليها نقش جميل ينبعث منه الدفء في أرجاء الغرفة.

وأعجبت تانيا بالعمل بشدة ولم يعد باستطاعتها إبعاد عينيها عن الأقمشة والخيوط ، فضحكت المرأة وقالت: يبدو أن العمل أعجبك فهل تريدين أن أعلمك إياه؟

نعم أريد... أجابت تانيا. فانزعجت آنستاسيا وقالت: لا تفكري حتى بالأمر، فليس لدينا مال نشتري به الملح وأنت تريدين أن تقوم ابنتي بحياكة وخياطة الحرير، فخيوط الحرير غالية الثمن.

لا يقلقك هذا الأمر، يا سيدتي... ردت المرأة المسافرة – فإذا أتقنت ابنتك العمل ستكسب الكثير من المال، ويصبح بمقدورك شراء ما تريدين. وسأترك لها الكثير من الخيوط والأقمشة مقابل استضافتك لي، وستكفيها لفترة طويلة. وسترين بنفسك أن عملنا مربح جداً.

فرأت آنستاسيا أن كلام المرأة صحيح ولم تعارض أكثر. وقالت: حسناً طالما

أنك ستعطينها أقمشة وخيوطاً فلا بأس علميها إذاً. وسأشكرك كثيراً على ذلك.

وهكذا بدأت هذه المرأة تعلم تانيا، وتعلمت تانيا سريعاً وكانت ذكية وسريعة الاستيعاب، وكأنها كانت تتقن هذا العمل في السابق. ولم تكن تانيا تحب التعامل مع الناس كثيراً، كما أنها لم تكن ودودة مع أهلها، في حين أنها أحبت هذه المرأة كثيراً. وكانت آنستاسيا تراقب الوضع عن بعد وتقول لنفسها: "وجدت لنفسها قرابة، فهي لا تتودد إلى أمها كما تتودد إلى هذه الغريبة".

وكانت المرأة الغريبة تتحدث مع تانيا وكأنها ابنتها هي. ورأت تانيا أن أمها انزعجت من ذلك ولكنها لم تستطيع أن تفعل شيئاً، فقد وثقت كثيراً بهذه المرأة لدرجة أنها أخبرتها بسر الصندوق الحجري الأخضر، فقالت: لدينا ذكرى غالية من والدي، وهي صندوق حجري أخضر، وفيه مجوهرات مزينة بالأحجار الكريمة، وأنا أحب أن أنظر العمر كله إلى تلك الأحجار.

وهل ستريني الصندوق؟... سألت المرأة.

ولم يخطر ببال تانيا أبداً أن هذا الأمر ليس صائباً، فقالت: حسناً سأريك إياه عندما يغادر جميع من في المنزل.

وعندما غادرت الأم وأولادها المنزل، نادت تانيا المرأة وأخرجت الصندوق من القبو، وأخرجت منه المجوهرات لتريها للمرأة، فقالت لها المرأة: تزيني بها فتصبح أكثر وضوحاً للعيان.

فتزينت تانيا بالمجوهرات وكانت المرأة تمتدح روعة المجوهرات وجمال تانيا، وتقول: جميل يا ابنتي جميل، علينا أن نصحح موضعها قليلاً... ثم اقتربت وأخذت تلمس الأحجار بإصبعها، وما إن تلمس حجراً حتى يزداد لمعاناً وبريقاً. ثم قالت المرأة: قفي يا ابنتي باستقامة.

فوقفت تانيا وبدأت المرأة تمسد لها شعرها بيدها وترتب ثيابها، ثم قالت لها: سأجعلك تستديرين وأنت انظري إلي فقط ولا تلتفتي، ولاحظي ما سيحدث ولا

تقولي شيئاً، حسناً استديري.

فاستدارت تانيا ورأت أمامها صالة كبيرة، لم تر مثلها من قبل. ربما كانت قصراً أو شيئاً آخر. فكان سطح الصالة يرتكز على أعمدة من الحجر الأخضر النقي. والجدران أيضاً كانت بطول الإنسان مزينة بالحجر الأخضر، كما كانت النقوش من الحجر الأخضر. وظهرت أمام تانيا مباشرة شابة جميلة جداً، لم تسمع بمثلها إلا من الحكايات. فقد كان شعرها أسود كالليل وعيناها خضراوين. وكانت كلها مزينة بالأحجار الكريمة، والثوب الذي عليها من المخمل الأخضر الذي يتموج بألوان كثيرة. وكان الثوب كأثواب الملكات على الصور. وكانت تقف بوقار شديد. وكان حشد كبير من الناس في تلك الصالة، وجميعهم يرتدون ثياب السادة ويتزينون بالذهب، ويبدون وكأنهم القيادات العليا. وكانت زوجاتهم هنا أيضاً، وجميعهن ترتدين الأثواب الفاخرة ولكن ولا واحدة منهن يمكن أن تنافس بجمالها جمال صاحبة العينين الخضراوين.

وإلى جانب صاحبة العينين الخضراوين وقف شخص يشبه الأرنب. وكانت ثيابه غريبة جداً، فقد بدا له الذهب قليلاً فتزين بالأحجار الكريمة الكبيرة التي لا يعثر على حجر بحجمها إلا كل عشر سنوات، ويبدو أنه كان صاحب منجم، وكان يتواجد باستمرار إلى جانب صاحبة العينين الخضراوين ولكنها لم تكن تعيره اهتمامها.

وقفت تانيا تتأمل هذه السيدة الجميلة، وفجأة انتبهت لنفسها قائلة: لكنها تتزين بالمجوهرات التي لوالدي... صاحت تانيا وفوراً اختفى كل شيء.

فضحكت المرأة وقالت: لم يتضح لك الأمر في هذه المرة، ولكن لا بأس سيتضح مع الزمن.

فبقيت تانيا تسأل عن مكان هذه الصالة؟

إنه القصر الملكي... أجابت المرأة – فالصالة المزينة بالحجر الأخضر كانت من الحجر الذي عثر عليه والدك.

ومن هي تلك السيدة التي تتزين بمجوهرات والدي ومعها ذلك الرجل الأرنب؟

هذا ما لن أخبرك به، لأنك ستعرفين ذلك بنفسك.

وفي نفس اليوم الذي عادت فيه آنستاسيا، بدأت فيه المرأة تحضر نفسها للرحيل. فانحنت لسيدة المنزل وشكرتها وقدمت لتانيا الحقيبة القماشية التي فيها الخيوط الحريرية والأقمشة، ثم أخرجت من جيبها زراً زجاجياً صغيراً، وأعطته لتانيا وقالت:

تقبلي يا ابنتي هذا الزر ذكرى مني. فما إن تنسي شيئاً من العمل أو تتعرضين لموقف صعب، انظري إلى هذا الزر، وسيأتيك الجواب حالاً.

قالت المرأة ذلك وذهبت. ولم يروها مرة ثانية.

ومنذ ذلك الحين صارت تانيا ماهرة في الحياكة والخياطة، وصارت صبية في سن الزواج. وبدأ شبان القرية ينظرون إلى نوافذ آنستاسيا آملين برؤية تانيا، ويخافون الاقتراب منها، فلم تكن ودودة ولا مرحة، كما أنها كانت من الأحرار، والحرة لا تتزوج عبداً عند الإقطاعي. فمن يريد لنفسه البلية؟

كذلك أصبحت تانيا معروفة في البيوت الإقطاعية، بسبب مهارتها في العمل. فصار السادة يرسلون إليها الحرس والخدم الأحرار لخطبتها، طامعين بجلبها إليهم واستغلال عملها ومهارتها عندهم. ولم تعر تانيا هؤلاء أي اهتمام، وكانت تختم حديثهم معها ساخرة فتقول لواحدهم: اذهب يا عزيزي.. اذهب. فلا شك أنهم بانتظارك. يخافون أن تتلف الساعة المعلقة التي أعاروك إياها فأنت لست معتاداً على مثلها.

فيشعر الخادم العامل عند السادة وكأنك سكبت عليه الماء المغلي، فيغادر مسرعاً وهو يقول: هل هذه فتاة، إنها تمثال حجري أخضر العينين.

ولكن ما من أحد أرسل لخطبة تانيا إلا وبقي يتذكرها ولا يستطيع نسيان جمالها. وكان يشعر بسحر يشده إلى منزلها فيمر دائماً بجانبه. وكان الشارع الذي يقوم عليه منزل آنستاسيا يعج بالشبان العازبين في يوم العطلة، يتمنون رؤية تانيا.

بينما هي لم تكن تهتم للأمر أبداً.

وبدأت الجارات تلمن آنستاسيا وتقلن لها: ما بال ابنتك قد تكبرت على شباننا كثيراً؟ وليس لديها صديقات من بناتنا. فهل تنتظر أميراً ليخطبها أم تريد أن تصبح راهبة؟

وكانت آنستاسيا تتنهد وتقول: آه يا أخواتي.. لم تكن ابنتي هكذا ولما جاءت إلينا تلك المرأة سحرتها، فما إن أتحدث معها حتى تخرج الزر وتبدأ النظر إليه وتصمت. ويا ليتني كنت أستطيع أن أرمي هذا الزر خارجاً ولكنه يساعدها في العمل. وكنت عاقبتها لولا أنها نشيطة في عملها وماهرة، ومن عملها نعيش. فلم يعد أمامي إلا البكاء. وعندها تقول لي: " أمي إنني أعرف أن نصيبي ليس هنا. ولهذا لا أعطي وعوداً لأحد ولا أخدع أحداً. فلماذا أجعل الناس يعانون؟ أما جلوسي بجانب النافذة فلأن عملي يتطلب ذلك. فلماذا تهاجمينني؟ وبماذا أسأت إليك؟" فبماذا أجيبها.

وصارت عائلة آنستاسيا تعيش في اكتفاء مادي، فقد زاد الطلب على عمل تانيا، وسمع به الناس في المدن الأخرى، فصاروا يرسلون طلباتهم ويدفعون مالاً وفيراً. وكان الرجال لا يكسبون مالاً كالذي تكسبه تانيا من عملها. ولكن جاءتهم المصيبة، فقد أصاب الحريق منزلهم والتهمت النيران كل شيء، وحدث الأمر ليلاً، فاحترق كل شيء حتى الحيوانات المنزلية. ولم يبق عندهم غير ملابسهم التي عليهم، والصندوق الحجري الأخضر الذي استطاعت آنستاسيا إخراجه من المنزل. وقالت في اليوم التالي: لا شك أنه حان وقت بيع الصندوق.

فصاح الأولاد بصوت واحد: بيعيه يا أمي ولكن لا تعطيه بالثمن البخس.

فنظرت تانيا خفية إلى الزر ورأت فيه صاحبة العينين الخضراوين تشير لها بأن دعيهم يبيعونه. فشعرت تانيا بالحزن ولكن ما العمل؟ فتنهدت وقالت: بيعيه يا أمي...



حتى أنها لم تلقي نظرة وداع على المجوهرات. فباتوا عند الجيران. وما إن قرروا بيع الصندوق، حتى جاء التجار فوراً. وربما كان أحدهم هو الذي دبر أمر الحريق ليحصل على الصندوق. وقد رأوا أن الأولاد كبروا فصاروا يزيدون في ثمنه، فبعضهم دفع خمسمائة وبعضهم ألفاً، وهي نقود ليست بقليلة ويمكن إصلاح الأمور بها، ولكن آنستاسيا طلبت ألفين. فبقي التجار يأتون إليها ولا يستطيعون الاتفاق مع بعضهم بعضاً، إذ كان الصندوق كنزاً ثميناً. واستمر الأمر على هذا الحال إلى أن جاء مشرف جديد إلى منطقتهم.

فقد جرت العادة على أن يتم نقل كل مشرف من منطقة إلى أخرى إذا طال بقاؤه في إحدى المناطق، وقيل إنه من البلاد الأجنبية، ويتحدث بلغات كثيرة، بينما يتحدث باللغة الروسية بصعوبة، ولم يكن يلفظ بالروسية الصحيحة إلا كلمة واحدة وهي "اجلدوه". وكان يلفظها بتكبر وغرور، وكلما أخبروه بأن أحد العمال لم يستخرج الكمية المتوجبة عليه من معادن وأحجار المنجم، كان يرد عليهم بكلمة واحدة هي "اجلدوه". فسموه في الشعب "الجلاد".

وكان هذا المشرف نحيل الجسم ورغم صراخه الكثير إلا أنه لم يكن يعذب الناس بقسوة ولم يكن يظلمهم وبعد فترة لم يجد الجلادون يجدون لأنفسهم عملاً، فتنفس الشعب العامل خلال فترة إشراف هذا المشرف.

وكان الإقطاعي قد أصبح عجوزاً وبات يحرك قدميه بصعوبة، وقرر أن يزوج ابنه لسيدة من النبلاء، ولكن الابن كانت لديه حبيبة من الشعب، وكان متعلقاً بها بشدة. فما العمل؟ إذ كان الوضع محرجاً. وماذا سيقول أهل العروس النبيلة؟ وهكذا صار الإقطاعي العجوز يحاول إقناع حبيبة ابنه بالزواج من عازف موسيقى كان يعمل لديه. وكان هذا العازف يعلم أولاد السادة الموسيقى واللغة الأجنبية. فقال الإقطاعي للفتاة: لماذا تريدين العيش بهذه الطريقة والإساءة إلى سمعتك، تزوجي من رجل يهتم بك، وسأرسله مشرفاً إلى منطقة المعامل، وكل شيء هناك منظم ولكن عليه أن يمسك الشعب بيد قوية. ويبدو أنه يكفيه العقل ليقوم بهذا

العمل رغم أنه موسيقي. وستعيشين معه حياة رغيدة، وستكونين من أفضل الناس هناك، وسيحترمك الجميع. فهل يبدو الأمر سيئاً؟

فقبلت المرأة بسهولة، فربما كانت على خلاف مع ابن الإقطاعي أو أنها بحثت عن مصلحتها. فقالت للإقطاعي: إنني منذ زمن بعيد أحلم بذلك ولكنني لم أتجرأ وأعبر عن ذلك بصراحة.

اعترض العازف في البداية قليلاً وقال: لا أريد أن أتزوج منها فسمعتها ليست جيدة.

لكن الإقطاعي كان عجوزاً ماكراً، ولم يكسب كل تلك الأموال عبثاً. وأجبر العازف على قبول العرض سريعاً، فربما هدده أو أغراه بشيء ما، وبعد فترة قصيرة تزوج العازف من هذه المرأة وسافرا إلى منطقة المعامل. وهكذا ظهر هذا المشرف الذي سموه "الجلاد" في منطقة المعامل، ولم يعش فترة طويلة ولكنه لم يكن إنساناً سيئاً.

حضر المشرف مع زوجته إلى المنطقة في نفس الفترة التي كان فيها التجار يحاولون شراء الصندوق من آنستاسيا. وكانت زوجة المشرف جميلة بيضاء وذات خدود وردية وسمعت بالصندوق وقالت لنفسها: "فلأذهب لأراه لعله يعجبني وأشتريه". فارتدت ملابسها وتزينت وحضرت إلى آنستاسيا، وقالت لها: حسناً يا عزيزتي أرني الصندوق والمجوهرات التي تريدين بيعها؟

فأحضرت آنستاسيا الصندوق وبدأت تعرض المجوهرات الموجودة فيه. فأعجبت زوجة المشرف بالمجوهرات فقد تربت في المدينة، وسافرت إلى البلاد الأجنبية مع ابن الإقطاعي كثيراً، وكانت تعرف قيمة المجوهرات. ففكرت في نفسها: "إن الملكة نفسها ليس لديها مجوهرات كهذه، يا ليتني أنجح في شرائها". فسألت المرأة آنستاسيا: كم تريدين ثمنها؟

فردت آنستاسيا: ألفي روبل.

هيا يا عزيزتي جهزي نفسك، سنذهب إلى منزلي ونأخذ الصندوق معنا. وهناك سأعطيك النقود.

لكن آنستاسيا لم تنخدع بذلك وقالت: ليس لدينا عادة كهذه في مناطقنا، أن يسعى الخبز وراء الجسد. اجلبي المال وخذي الصندوق.

فرأت المرأة أن آنستاسيا ليست امرأة سهلة، فتوجهت سريعاً لجلب المال وقالت لآنستاسيا: لكنك يا عزيزتي لا تبيعي الصندوق لغيري.

فردت آنستاسيا: يمكنك أن تثقي بذلك فأنا لا أتراجع عن كلمتي. وسأنتظرك حتى المساء فإن لم تحضري فسأتصرف حسب مشيئتي.

وما إن غادرت زوجة المشرف حتى حضر التجار سوية. فقد كانوا يراقبون المنزل. وسألوا آنستاسيا: هل اشترتها؟

نعم لقد بعتها... ردت آنستاسيا.

بكم بعتها؟

بألفي روبل.

ما بالك هل جننت، لنا نحن أبناء منطقتك لم تبيعينا ولهذه الغريبة بعتها فوراً؟ ... وبدؤوا يزيدون في سعرها.

ولكن آنستاسيا لم تنخدع بذلك وقالت: إنها من عادتكم ألا تحافظوا على كلمتكم أما أنا فكلمتي غالية علي. لقد وعدت المرأة ولننهِ هذا الحديث.

وعادت زوجة المشرف سريعاً، وأحضرت المال معها، وناولته لآنستاسيا ثم أخذت الصندوق ورحلت. وما إن خرجت إلى عتبة البيت حتى قابلت تانيا، فقد كانت خارج المنزل، وجرى البيع وهي غير موجودة. فرأت تانيا السيدة تخرج ومعها الصندوق، فنظرت إليها لترى إن كانت تلك التي رأتها في الصالة.

فسألتها زوجة المشرف: من أنت ومن تكونين؟

أنا ابنة هؤلاء الناس الذين باعوك الصندوق. وكنت الوريثة الشرعية للصندوق، ولم أكن لأبيعه لولا الحاجة. إنني منذ صغري أحب اللعب بهذه

المجوهرات، ولكن ما فائدة الحديث عن تلك الأيام فالذي بيع قد بيع.

عبثاً تظنين الأمر بهذه الصورة يا عزيزتي... قالت زوجة المشرف – سأجد مكاناً لهذه المجوهرات... وفكرت في نفسها: "من الجيد أن صاحبة العينين الخضراوين هذه لا تدرك قيمة جمالها. فلو أنها ظهرت في المدينة لأوقعت في حبها الملوك. علي ألا أترك عشيقي الأحمق ابن الإقطاعي يراها".

وعلى هذا افترقتا.

وما إن وصلت زوجة المشرف إلى المنزل حتى أخذت تتباهى أمام زوجها وقالت: والآن يا صديقي العزيز لن أحتاجك لا أنت ولا ابن الإقطاعي، فعند أقل رغبة أسافر إلى العاصمة أو الأفضل من ذلك خارج البلاد، سأبيع الصندوق وأشتري بثمنه زوجين مثلك إذا احتجت لذلك.

ولأنها كانت امرأة فبعد أن تباهت بنفسها أرادت أن تجرب المجوهرات على نفسها فأسرعت إلى المرآة ووضعت الجوهرة التي تزين الرأس، ويا للهول صاحت من الألم فقد شدت الجوهرة شعرها بقوة، وما إن وضعت الأقراط حتى شعرت بألم شديد في أذنيها، وعندما وضعت الخاتم في إصبعها ضغط الخاتم بقوة على إصبعها فنزعته بصعوبة. وجلس زوجها يضحك منها ساخراً ويقول: "ليس مكتوباً لأمثالك التزين بمجوهرات كهذه".

ففكرت المرأة في نفسها: "ما الأمر؟ علي بالتوجه إلى المدينة لعرض المجوهرات على الحرفي ليصلحها. لكن علي أن أحرص على ألا يستبدل الأحجار الكريمة بأخرى مزورة".

ولأنها كانت تنفذ ما تنوي عليه، فقد توجهت منذ صباح اليوم التالي لتبحث عن حرفي يصلح المجوهرات، فسألت عن أفضل حرفي وقد كان رجلاً هرماً وخبيراً في مصلحته، فتفحص الصندوق وسأل ممن اشترته، فحكت زوجة المشرف ما كانت تعرفه. تفحص الحرفي الصندوق مرة أخرى، ولم ينظر إلى المجوهرات أصلاً وقال لها: لا أستطيع أن أصلح لك المجوهرات لأن الصندوق والمجوهرات ليست من صنع حرفيينا ولهذا لا نعرف كيف نصلحها.

وطبعاً لم تفهم المرأة ما قصده الحرفي وتوجهت فوراً إلى حرفي آخر. ولكن كل الحرفيين الذين عرضت عليهم صندوق المجوهرات رفضوا مساعدتها، فجميعهم تفحصوا الصندوق من الخارج بإعجاب ولم ينظروا إلى المجوهرات أبداً ورفضوا مساعدتها. وعندها استخدمت المرأة الحيلة وقالت إنها جلبت الصندوق من العاصمة نفسها. لكن الحرفي الذي كانت تود أن تخدعه بهذه الطريقة ضحك وقال: أعرف في أي مكان صنع الصندوق وأعرف الحرفي الذي صنعه وأين لنا أن نتنافس معه في مهارته حتى أننا لا نستطيع إصلاح الخلل.

وهنا أيضاً لم تفهم المرأة ما أراد قوله الحرفي، وظنت أن الحرفيين يخشون من شخص ما. وتذكرت ما قالته آنستاسيا لها بأن ابنتها كانت تحب ارتداء هذه المجوهرات، وقالت في نفسها: "هل يرفضون إصلاح المجوهرات لأنها كانت لصاحبة العينين الخضراوين؟ وأنا ماذا يهمني من هذا الأمر. سأبيع المجوهرات لسيدة غنية وغبية، ولتعانِ هي في ارتدائها، أما أنا فسأكسب النقود". وبهذه الفكرة عادت إلى منطقة المعامل.

وما إن حضرت إلى المنطقة حتى سمعت بخبر وفاة الإقطاعي العجوز. وقد كان ماكراً في تدبيره لزواج المشرف، ولكن الموت كان أمكر منه، فلم يزوج ابنه بعد، وقد أصبح ابن الإقطاعي هو السيد على جميع أملاك والده، وبعد فترة استلمت زوجة المشرف رسالة تقول:"يا عزيزتي سوف آتي قريباً فانتظريني وسآخذك معي، أما زوجك العازف فسنرسله إلى مكان ما". وما إن علم المشرف بالأمر حتى اشتد غضبه، فكيف سيحافظ على ماء وجهه إذا جاء الإقطاعي وأخذ زوجته منه. ولعدم قدرته على فعل شيء بدأ يشرب الخمر مع العمال. ومرة قال أحد العمال متباهياً: لقد كبرت لدينا صبية جميلة في منطقة المصانع، يصعب العثور على مثلها.

فسأل المشرف: ابنة من هي وأين منزلها؟

فحكوا له ما أراد معرفته وذكروا له أمر الصندوق الذي اشترته زوجته.

فقال المشرف: يا ليتني أستطيع رؤيتها.

وتبرع العمال بإيصاله إلى المنزل فوراً، فقال المشرف: لنذهب الآن فوراً، لنرى إن بنوا منزلهم في مكان صحيح، فهم عائلة من الأحرار ولكنهم يعيشون على أرض المصانع، وإذا احتجنا نستطيع أن نضغط عليهم.

فذهب ثلاثة من الرجال مع المشرف، وجلبوا معهم سلسلة حديدية طويلة ليقيسوا بها الأرض التي بنت آنستاسيا عليها منزلها، ليروا إن كانت أخذت من أرض جيرانها وإن كانت وضعت الأعمدة بصورة صحيحة. ثم دخلوا المنزل وكانت تانيا وحيدة في المنزل. نظر إليها المشرف وعلق الكلام في حنجرته. فلم ير جمالاً كهذا في أي بلد من البلدان التي زارها. فوقف كالأحمق بينما هي جالسة صامتة، وكأن الأمر لا يعنيها. ثم ابتعد المشرف عنها قليلاً وبدأ يسألها: ماذا تعملين؟

فأجابت تانيا: أحيك وأخيط الحرير وأبيعه... وبدأت تريه عملها.

وأنا هل يمكنني أن أطلب منك أن تحيكي لي؟

ولم لا... أجابت تانيا – طالما أننا سنتفق على السعر فلا مانع.

هل تستطيعين أن تحيكي لي صورتك من الحرير؟

نظرت تانيا خفية إلى الزر ورأت هناك صاحبة العينين الخضراوين تومئ لها برأسها وتقول: "خذي الطلب"، وأشارت إلى نفسها بإصبعها. فردت تانيا: لن أحيك لك صورتي، ولكن لدي صورة امرأة ترتدي الأحجار الكريمة والثياب الملكية، سأحيك لك صورتها. ولكن عملاً كهذا سيكلفك غالياً.

لا تقلقي بهذا الشأن ... أجاب المشرف – فإن طلبت مائة روبل أو مائتي روبل فسأدفع لك، أرجو أن تشبهك ليس إلا.

في الوجه سيكون هناك تشابه، بينما الملابس ستختلف.

وهكذا اتفقا على مبلغ مائة روبل، وحددت تانيا موعد الاستلام بعد شهر. وكان المشرف يأتي كل فترة كأنما ليطمئن على سير العمل في حين أنه كان يأتي لغرض آخر، فقد وقع في حب تانيا وهي لم تلحظ شيئاً. فكان المشرف يتلفظ بكلمة أو اثنتين

ثم يصمت. وكان رفاقه من العمال يسخرون منه قائلين: لن تحصل على شيء هنا، وستتلف حذاءك عبثاً.

وهكذا حاكت تانيا الصورة، فنظر المشرف إلى الصورة وقال في نفسه: "إنها صورتها نفسها ولكنها مزينة بالأحجار الكريمة والمجوهرات وترتدي الثياب الفاخرة. فأعطاها ثلاثمائة روبل، ولكنها لم تأخذ منها إلا مائة روبل، وقالت: لم أعتد على تقبل الهدايا، فنحن نعيش من عرق جبيننا.

عاد المشرف إلى بيته وجلس يتأمل الصورة، وخبأها جيداً عن زوجته. وقل تناوله للشراب وبدأ يتقن تدريجياً أمور إدارة المناجم.

ومع قدوم الربيع قدم إلى المنطقة الإقطاعي الشاب. واجتمع الناس كلهم في الكنيسة وصلوا هناك، ثم بدأت الاحتفالات في بيت الإقطاعي. وقد أخرجوا للعمال برميلي نبيذ كي يتذكروا الإقطاعي العجوز ويهنئوا الإقطاعي الشاب. وفي اليوم التالي توجه الناس إلى العمل ، بينما استمرت الاحتفالات في بيت الإقطاعي. وهكذا استمر الحال، نوم واحتفال. ويقضي الإقطاعي وضيوفه وقتهم في ركوب القوارب والخيل والصيد وسماع الموسيقى. بينما كان المشرف سكراناً دائماً، فقد أحاطه الإقطاعي برفاق السوء وأمرهم بأن يبقوه سكراناً قدر الإمكان.

ورغم أن المشرف كان سكراناً، إلا أنه شعر إلى ماذا سينتهي الأمر. وكان يشعر بالحرج أمام الضيوف، فقال أمام الجميع وهم خلف طاولة الطعام: أنا لست مهتماً في أن السيد يريد أن يأخذ مني زوجتي، فليأخذها، فأنا لا أريد واحدة مثلها، فأنا لدي هذه...

وأخرج من جيبه الصورة الحريرية. وما إن رآها الناس حتى فتحوا أفواههم من شدة الدهشة. والإقطاعي أيضاً أخذ يحملق في الصورة. ثم سأل: من تكون؟

فضحك المشرف وقال: املأ لي الطاولة ذهباً وإلا لن أقول لك.

فسارع أهل المنطقة يشرحون للإقطاعي من تكون الفتاة. بينما أخذت زوجة

المشرف تعارضهم وتقول: ما هذا الهراء الذي تقولونه. من أين لفتاة عادية ثوب كهذا ومجوهرات مطعمة بأحجار كريمة؟ أما هذه الصورة فقد أحضرها زوجي من خارج البلاد. وقد رأيتها معه قبل زواجنا. والآن وهو سكران يقول كل هذا الهراء. وبعد فترة سينسى اسمه.

رأى المشرف أن زوجته منزعجة من الأمر فأخذ يزيد في حدته ويقول: عليك أن تخجلي من نفسك. لماذا تكذبين على السيد. أي صورة رأيتها قبل زواجك؟ هنا حاكتها لي نفس الفتاة التي يتحدثون عنها. أما بالنسبة للثوب فلن أكذب، لا أعرف. إذ يمكنك أن ترتدي أي ثوب. أما الأحجار فقد كانت عندهم، والآن هذه الأحجار في خزانتك مخبأة. فأنت بنفسك اشتريتها ودفعت ثمنها ألفي روبل، ولم تستطيعي ارتداءها، يبدو أنها لا تناسبك، وكل أهالي المنطقة يعرفون بأمر شرائك للصندوق.

وما إن سمع الإقطاعي بأمر الأحجار الكريمة حتى قال فوراً: أرني إياها فوراً.

فقد كان ابن الإقطاعي غبياً، ويحب الأحجار الكريمة كثيراً، وكان وريثاً لأب غني ليس إلا. ولم يكن لديه شيء يفخر به ، فلا صوت رجولي لديه ولا طول قامة، فأراد أن يحصل على الأحجار ليفخر بها، وكان كلما سمع بحجر كريم يباع في منطقة ما يسرع لشرائه. وكان يعرف قيمة الأحجار الكريمة جيداً.

رأت زوجة المشرف أنه لم يعد أمامها من حل آخر فذهبت وأتت بالصندوق. نظر الإقطاعي إلى الصندوق وقال: بكم تبيعيه؟

فسمت المرأة سعراً غير معقول، ولكن الإقطاعي أقنعها بنصف الثمن، ودفع لها المال فوراً وأخذ الصندوق. ثم قال: نادوا إلي هذه الفتاة التي كنتم تتحدثون عنها.

فتوجه عدد من الناس لينادوها، فحضرت تانيا فوراً إذ أنها ظنت بأن هناك طلباً ضخماً على عملها. فدخلت الغرفة ورأت حشداً هائلاً من الناس هناك، وفي وسط الغرفة ذلك الرجل الذي يشبه الأرنب الذي رأته في الزر. وأمام الرجل الأرنب صندوق

حجري هو هدية والدها. فعرفت تانيا في هذا الرجل الذي يشبه الأرنب الإقطاعي الجديد وقالت: لماذا ناديتني؟

ولم يستطع الإقطاعي أن ينطق بكلمة واحدة. وبقي يحملق فيها. ثم قال: هل الأحجار ملكك؟

كانت ملكنا والآن ملكهم... وأشارت تانيا إلى زوجة المشرف.

لا إنها الآن ملكي... تفاخر الإقطاعي..

إنه أمر يخصك... ردت تانيا.

وهل تريدين أن أهديك إياها ثانية؟... سأل الإقطاعي.

لا شيء عندي أرد به هديتك... أجابت تانيا.

وهل تستطيعين أن تجربيها على نفسك؟ أريد أن أرى كيف ستكون المجوهرات على السيدة... طلب الإقطاعي.

هذا الأمر ممكن... وافقت تانيا.

فأخذت الصندوق وتزينت بالمجوهرات. وصاح الإقطاعي مندهشاً من شدة الإعجاب.

وقفت تانيا قليلاً ثم قالت: هل اكتفيت من النظر؟ فأنا ورائي أعمال أقوم بها، ولا أستطيع البقاء طويلاً.

فقال الإقطاعي أمام الجميع: هل تقبلين أن تكوني زوجة لي؟

فضحكت تانيا وقالت: لا يليق بالسيد أن يقول كلاماً كهذا.

ثم أعادت المجوهرات وذهبت. ولكن الإقطاعي بقي يحاول كسب ودها، وعاد لخطبتها في اليوم التالي، وأخذ يرجو آنستاسيا ويقول:" زوجيني إياها".

فقالت له آنستاسيا: إنني لا أغصبها على شيء، وهي حرة في اختيارها، ولكن

يبدو لي أن هذا الزواج غير متناسب.

بقيت تانيا تستمع وأخيراً قالت: قد سمعت أنه في قصر الملك توجد صالة من الحجر الأخضر الذي استخرجه والدي من الجبل. فإذا جعلتني أرى الملكة في هذه الصالة أتزوجك.

وكان الإقطاعي مستعداً لفعل أي شيء، فأخذ يستعد للسفر مباشرة إلى العاصمة، ودعا تانيا للذهاب معه، وقال إنه سيعطيها خيولاً أصيلة لتنقلها، فأجابته تانيا: إن من عاداتنا ألا تركب العروس في عربة عريسها قبل أن تصبح زوجته، ونحن لم نصبح بعد عروسين، وسنتحدث حول ذلك لاحقاً، عندما تفي بوعدك.

ومتى ستحضرين إلى العاصمة بطرسبرغ؟

سأحضر في الموعد لا تشك بذلك، والآن اذهب من هنا.

غادر الإقطاعي، ولم يعد ينظر حتى إلى زوجة المشرف، وما إن وصل إلى العاصمة حتى بدأ يحدث الجميع عن الأحجار الكريمة وعن عروسه. وعرض الصندوق على الكثيرين. ولكن الناس كانوا يريدون رؤية العروس. ومع مجيء الخريف جهز الإقطاعي شقة لتانيا، واشترى لها ثياباً كثيرة من أجمل الأثواب، فأرسلت له تانيا رسالة تقول إنها في العاصمة تعيش عند أرملة.

فأسرع الإقطاعي إلى بيت الأرملة وقال لتانيا: هل يعقل أن تبقي في هذا المنزل، فقد جهزت لك شقة فاخرة، من الصنف الأول.

فأجابته تانيا: إنني مرتاحة هنا.

وصلت الشائعات حول المجوهرات وحول عروس الإقطاعي إلى الملكة نفسها، فقالت الملكة: أريد أن يجلب الإقطاعي عروسه إلي لأراها. إذ يكذبون كثيراً حولها.

فأسرع الإقطاعي إلى تانيا وأخبرها بأنه يجب أن يستعدوا. ويجب أن يخيطوا لها ثوباً يليق بالحضور إلى القصر، وعليها بارتداء مجوهرات الصندوق. فأجابت تانيا: لا تشغل بالك بالثوب، وسأبقي الأحجار عندي لفترة. ولكن إياك أن ترسل

خلفي عربتك. فسوف آتي في عربتي، وأنت انتظرني عند عتبة القصر.

ففكر الإقطاعي في نفسه، من أين لها العربة؟ ومن أين ستأتي بعربة تليق بالقصور؟ ولكنه لم يتجرأ ويسألها.

وهكذا بدأ الضيوف يحضرون إلى القصر. وجميعهم يركبون العربات الفاخرة، ويرتدون الحرير والمخمل. وحضر الإقطاعي باكراً إلى عتبة القصر ينتظر عروسه. واشتد فضول الآخرين لرؤيتها فوقفوا معه. وأما تانيا فقد تزينت بالمجوهرات وربطت شعرها بمنديل كما تفعل العاملات في منطقتها وارتدت معطف الفرو وسارت تمشي بهدوء. وسار وراءها حشد من الناس يتساءلون من تكون؟ فاقتربت تانيا من عتبة القصر، فلم يسمح لها حراس القصر بالدخول، وقالوا إنه غير مسموح للعمال بالدخول. فرأى الإقطاعي من بعيد عروسه إلا أنه شعر بالخجل من الموجودين، لأن عروسه جاءت راجلة وترتدي معطفاً عادياً، فسارع واختبأ. وهنا خلعت تانيا معطفها، فنظر الحرس إلى الثوب الذي لم يكن عند الملكة مثله، وأدخلوها فوراً، وما إن خلعت تانيا المعطف والمنديل، حتى بدأ الجميع يعبرون عن إعجابهم ويتساءلون: من هي؟ وملكة أي بلاد؟

فظهر الإقطاعي فوراً، وقال: إنها عروسي.

فنظرت إليه تانيا نظرة حادة وقالت: هذا ما سنراه لاحقاً، لماذا خدعتني ولم تنتظرني عند عتبة القصر؟

فبدأ الإقطاعي يعتذر منها،ثم توجهوا إلى صالات القصر، فنظرت تانيا وقالت إنه ليس المكان المحدد، وسألته بحدة أكبر: ما هذا الخداع؟ لقد طلبت منك أن تأخذني إلى الصالة التي من الحجر الأخضر الذي عثر عليه والدي... ثم سارت في أرجاء القصر وكأنها في منزلها. وسار القادة والضباط والمديرون والتجار خلفها.

وزادت حشود الناس كثيراً، وجميعهم يحملقون إلى تانيا، بينما هي وقفت عند الجدار الأخضر تنتظر. فبدأ الإقطاعي يخبرها بأنه ليس من اللائق البقاء هنا،

فالملكة أمرت بانتظارها في مكان آخر. بينما استمرت تانيا بالوقوف بهدوء، ولم يرمش لها جفن، وكأن الإقطاعي لم يكن موجوداً.

وخرجت الملكة إلى الغرفة التي حددتها لاستقبال الضيوف ولم تجد هناك أحداً. فجاء الخدم وأخبروها بأن عروس الإقطاعي أخذت الجميع إلى الصالة من الحجر الأخضر. فانزعجت الملكة من هذه التصرفات وتوجهت إلى الصالة الخضراء، فانحنى لها الجميع بينما تانيا بقيت واقفة دون حراك.

فصاحت الملكة: حسناً أين هي عروس الإقطاعي التي تتصرف حسب مشيئتها في قصري؟

فسمعت تانيا ذلك، وزادت حدة نظرتها، وقالت للإقطاعي: ما هذا الذي ابتكرته. لقد أمرتك أن تريني الملكة، بينما أنت دبرت أن تشاهدني الملكة. إنك مخادع، ولا أريد أن أراك مرة ثانية. خذ أحجارك الكريمة.

ومع قولها لهذه الكلمات استندت إلى الجدار من الحجر الأخضر واختفت فيه ولم يبق منها أثر غير الأحجار الكريمة التي التصقت بالحجر في أماكن الرأس والرقبة واليدين.

فخاف الجميع وغابت الملكة عن الوعي. فبدأ حشد الضيوف يحاولون رفع الملكة ومعالجتها. وعندما هدأت الفوضى، قال أصدقاء الإقطاعي له: خذ الأحجار على الأقل لأنه سيتم سرقتها. فهنا ليس أي مكان بل هنا القصر والجميع يعرف قيمة هذه الأحجار.

فبدأ الإقطاعي ينتزع الأحجار عن الحائط، وما إن يمسك بحجر حتى يتحول الحجر إلى قطرة ماء نقي أو قطرة صفراء أو حمراء، وهكذا لم يجمع شيئاً، فنظر إلى الأرض ورأى فوقها زراً فأخذه ونظر إليه ورأى فيه صاحبة العينين الخضراوين مزينة بالأحجار الكريمة، تضحك ساخرة وتقول: يا لك من أرنب قليل العقل. هل كنت تأمل أن تتزوجني. فأنت لست من مستواي؟

ففقد الإقطاعي بعد ذلك بقية عقله، ولكنه لم يرم الزر. وبقي ينظر إليه ويرى فيه صاحبة العينين الخضراوين والتي تضحك وتتلفظ بالكلمات الجارحة. فبدأ الإقطاعي يشرب ويسكر من شدة الحزن فراكم ديوناً كثيرة، ووصلت الحال بالمصانع إلى أن تباع بالثمن البخس.

أما الجلاد فبعد أن أبعد عن عمله، صار يقضي وقته في الحانات، حتى مات، ولكنه بقي محتفظاً بالصورة الحريرية. ولم يعرف أحد أين صارت الصورة بعد موته.

كذلك لم تهنأ زوجة المشرف بحياتها، فلم تستطع الحصول على شيء لأن كل الحديد والنحاس كان مرهوناً في المنطقة.

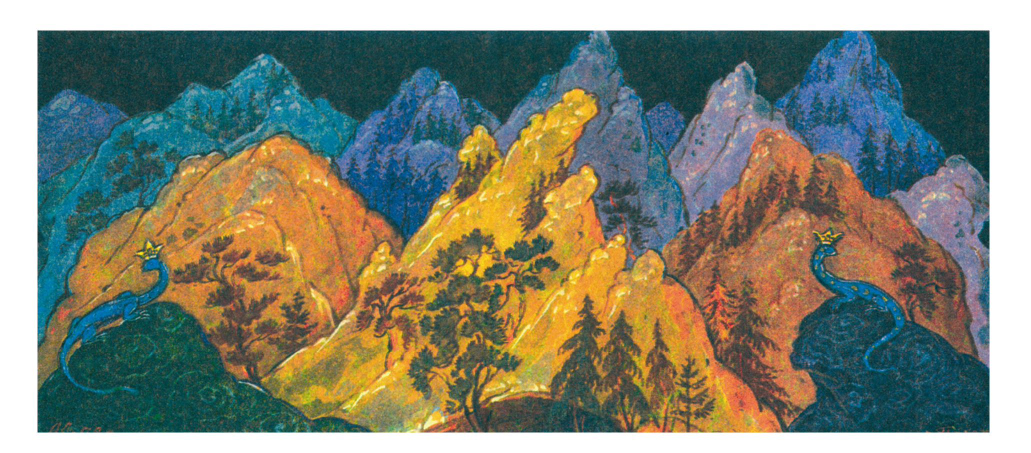
ولم يسمع أحد عن تانيا أي شيء في المنطقة بعد ذلك.

حزنت آنستاسيا فترة، ولكن لا حول ولا قوة، فتانيا رغم أنها كانت ابنة هذه العائلة إلا أنها كانت كالغريبة.

كما أن أولاد آنستاسيا كانوا قد كبروا وتزوجوا، وامتلأ المنزل بالأحفاد. فلم يبقِ عندها أي وقت للفراغ لتفكر فيه، فأعباء المنزل كثيرة.

وبقي الشبان العازبون يحومون تحت نوافذ بيت آنستاسيا ينتظرون ظهور تانيا، وبعد أن فقدوا الأمل تزوجوا جميعهم، ولكنهم بقوا يتذكرونها فيما بينهم ويقولون: يا لها من فتاة كانت في منطقتنا، لن نرى واحدة مثلها في حياتنا مرة ثانية.

وبعد هذه الحادثة انتشرت شائعة أنه صار هناك سيدتان للجبل النحاسي لهما نفس المظهر ونفس الثوب، ورآهما بعض العمال سوية.



السحليتان

يقال إن منطقتنا كانت تحت إشراف خزينة المملكة، ولم يكن هناك أي مصانع قبل ذلك في هذه المناطق، فقد أقيمت المصانع مع سير الحرب. ومن المعروف أنه عندما تشرف الخزينة على شيء ما فإنه يتم إرسال الجنود. وعندها بنوا القرية التي سموها بالدرع الجبلي لحماية الطريق وتأمين أمان وسلامة التنقل فيه. وكان في منطقتنا في تلك الفترة ثروات كبيرة في الجبال، وكانت الخزينة تسعى للحصول عليها. وعندما اكتشفوا هذه الثروات، أحضروا الشعب العامل، وأقاموا المصنع، وجلبوا الألمان، ولكن العمل لم يجر كما يجب. فإما أن الألمان لم يرغبوا بالكشف عن الكنوز، أو أنهم لم يكونوا يعرفون مكانها، ولكنهم لم يكتشفوا كنوز المنطقة، بل اكتشفوا منجماً آخر ولكنه لم يكن يستحق هذا العناء، فقد كان منجماً ضئيل الثروات، ولا يقام المعمل على منجم كهذا، وعندها آلت منطقتنا إلى الإقطاعي العجوز الذي تحدثنا عنه وعن ولده في القصة السابقة.

وكان هذا الإقطاعي يتاجر بالملح قبل ذلك، ويعمل قليلاً في مجال النحاس، وكان لديه مصنع. وكان المصنع ينتج المصنوعات اليدوية البسيطة. وكان عند الإقطاعي مشرف ذكي، ما إن سمع بأن المصنع المعدني لدى الخزينة لا يعمل، توجه مباشرة لشرائه، فقال إن سيده الإقطاعي لديه مصنع وعمال ويستطيع تشغيل

المصنع في هذه المنطقة واستخراج المعادن.

وقد رفض أصحاب المعامل الأخرى والإقطاعيون أن يفكروا أصلاً في شراء هذا المصنع، فقد فكروا في أنفسهم: "طالما أن الألمان المختصون لم يستطيعوا تشغيل المصنع فلا جدوى من شرائه". وهكذا حصل الإقطاعي على المصنع بالمجان تقريباً.

ثم حضر الإقطاعي إلى المنطقة وجلب صناعه، ووعدهم وعوداً كثيرة إن عثروا على الثروات، وكان رجلاً ماكراً يستطيع خداع الشعب.

فقال لهم: هيا يا عمالي الأبطال، اعثروا لي على الثروات وشغلوا المصنع وسأكافئكم مكافأة كبيرة، فهل أنتم أسوأ من الألمان كي تفشلوا في هذه المهمة؟

وكان لديه لسان حنون يكذب كثيراً ويعد كثيراً، فقد نشأ على هذه الطريقة منذ شبابه.

ولم يكن العمال الشيوخ راغبين بالانتقال من أماكن سكنهم القديمة إلى هذه المنطقة الجديدة، ولكن هذه الكلمة بشأن الألمان أزعجتهم فلم يكونوا راغبين بأن يبدو أسوأ من الألمان.

وخاصة أن الألمان كانوا يتكبرون على عمالنا ويتعالون عليهم، فزاد انزعاج الشيوخ وذهبوا لتفحص المعمل، ورأوا أنه مجهز تجهيزاً أفضل من معمل الإقطاعي القديم، لأن الخزينة هي التي بنت هذا المعمل. ثم تجولوا في أرجاء المنطقة وفحصوا الجبال، وقالوا: إن الذين كانوا يعملون هنا في السابق حمقى.

فمن هذه المناجم وبفضل أفران ضخمة كهذه يمكننا أن نحول الكمية من المجموع العام إلى معادن. ولكن احرص على أن يكون الملح متوفراً لدينا كما في مناطقنا. فقد كانوا يعرفون حيلة ماهرة في هذه الصناعة، وهي صهر المواد الخام مع الملح، وكانوا يأملون النجاح في ذلك. فوثق الإقطاعي بصناعه وقال للألمان: إننا لسنا بحاجة لخبرائكم بعد الآن.

ولم يبق أمام الألمان إلا أن يحزموا حقائبهم، فعاد بعضهم إلى ديارهم في ألمانيا

والبعض ذهبوا للعمل في مصانع أخرى. ولكن فضولهم كان يدفعهم لمعرفة كيف سيدير العمال العاديون من الشعب معملاً كهذا، فطلب الألمان من ثلاثة أشخاص كانوا من الذين قدموا مع الألمان إلى المنطقة وقالوا لهم: ابقوا هنا وانظروا هل يوجد عند العمال خدعة ما، وعلى ماذا يأملون عندما يأخذون عملاً كهذا؟ فإن عرفتم أرسلوا لنا إشارة ونحن سندفع لكم.

وأحد هؤلاء الثلاثة كان شاباً طيباً، فأخبر الصناع بالأمر. وعندها قال العمال للإقطاعي: يفضل أن تجلب جميع العمال من مناطقنا ليعملوا في المعمل، وإلا ستحدث أمور لا ترغب بها. فإن وضعت شخصاً غريباً يمكن أن يكون مرسلاً من قبل الألمان، فمن مصلحتك ألا يعرف أحد أسرار مهنتنا.

فوافق الإقطاعي وكان في نيته أن يطبق خدعته الخاصة ولم يخبر العمال بها، فقد فكر في نفسه: "إن هذا من مصلحتي".

فقد كان الإقطاعيون الآخرون وأصحاب المعامل المحليون يستقبلون جميع الهاربين، بكونهم أرخص تكلفة ولا يدفعون للدولة ضرائب عنهم، فيمكنك أن تفعل بهم ما تشاء.أما الإقطاعي تورتشانينوف فقد كان يرى الموضوع مختلفاً، ففكر بالأمر على النحو التالي: إن جلب الهاربين يجلب المشاكل فيما بعد. فالهاربون يعلمون الآخرين على الهرب، والأفضل أن أجلب العمال من المناطق التي أملكها مع عائلاتهم؟ فأين سيهرب العامل من عائلته؟ وسينتشر الهدوء في المنطقة، وأسيطر عليهم سيطرة تامة، وعندها سنرى من سيربح أكثر.

وهذا ما حدث فيما بعد، وسار الأمر في معاملنا على قانون واحد. بينما بدأت المشاكل في معامل السادة الآخرين، وعندما سمع بذلك الإقطاعي قال لصناعه الشيوخ: شكراً لكم يا شيوخي لأنكم نصحتموني نصيحة مجدية، ولن أنسى لكم معروفكم أبداً، وسأجعل كل شيء يسير على نصيحتكم، وسأغلق المصنع في منطقتنا القديمة وأجلب جميع العمال إلى هنا، وأنتم ابحثوا لي عن عمال نشيطين وموثوق بهم وسأشتريهم من السادة الآخرين. افعلوا ذلك من أجلي وأنا سأكافئكم... وعاد

يكثر من وعوده الكاذبة كالعادة، ولم يبخل عليهم بالخمر والطعام، وجلس يحتفل معهم إلى طاولة الطعام ورقص معهم، وكان العمال شعباً طيباً، فصدقوه ونجح هو في خداعهم. فعاد الشيوخ إلى منازلهم وأخذوا يمتدحون الإقطاعي أمام عائلاتهم والمناطق الجديدة ويقولون: يا لها من مناطق واسعة رحبة، فيها نحاس كثير وثروات أخرى، وستكون المكاسب كبيرة، والإقطاعي رجل طيب، شربنا معه وأكلنا ولم يتكبر علينا، ويمكننا أن نعيش معه.

وكان رجال الإقطاعي الذين أرسلهم ليجمعوا الناس ويجلبوهم إلى منطقة المعامل يقومون بعملهم جيداً، فجمعوا أعداداً كبيرة واشتروا الكثير من العمال الجيدين من المصانع الأخرى، فقد كانت فترة إقطاع، وكانوا يبيعون الناس كما يبيعون الماشية. ولم يؤجلوا الأمر كثيراً ، فقاموا بنقل الصناع مع عائلاتهم إلى المناطق الجديدة، وقطعوا عليهم طريق الرجعة بشكل تام. بالإضافة إلى الذين اشتروهم فهؤلاء لا يستطيعون العودة أصلاً، وحددوا لهم أجرة النقل قيمة هائلة لن يستطيعوا تسديدها حتى مماتهم. ومن سيهرب من عائلته؟ وهكذا قيد الإقطاعي كل هؤلاء بيد من حديد. ولم يترك من العمال القدامى الذين كانوا في المصنع تحت إمرة الألمان إلا واحداً هو ذلك الشاب الذي أخبر الصناع عن مؤامرة الألمان. وكان الإقطاعي يرغب بالتخلص منه أيضاً، ولكن أحد الصناع حاول أن يوقظ ضمير الإقطاعي فقال له: هل نسيت أنه ساعدنا، علينا أن نعلمه المهنة، إذ يبدو عليه أنه شاب ذكي.

ثم سأل الشاب: ماذا كنت تعمل عند الألمان؟

كنت أطحن الخامات التي يستخرجونها من المنجم... أجاب الشاب.

إنه أمر بسيط، وهل تتقن أسرار عمل الألمان؟... سأل الحرفي.

لا فلم يسمحوا لأحد بمعرفة أسرار عملهم، فقد كان لديهم عمالهم من الألمان لهذه الغاية، فعمالنا كانوا يجلبون الخامات بأمر من المشرف الألماني الذي يحدد لهم الكمية.

فاستمع إليه الحرفي وقال كلمته: سوف آخذك صانعاً لدي تتعلم مني، وأنت تخبرني ما رأيته مفيداً عند الألمان.

وهكذا وضعوا هذا الشاب الذي كان يدعى آندريه عند الأفران، فتعلم العمل سريعاً وأصبح لا يقل خبرة عن الصانع العجوز الذي علمه.

وبعد مرور سنتين تغير وضع المنطقة تماماً عما كان عليه خلال فترة إدارة الألمان، فقد بدؤوا يستخرجون كميات كبيرة من النحاس، وانتشرت سمعة هذه المناطق الغنية في أرجاء البلاد كلها، وزاد عدد العاملين كثيراً، وجميعهم من المناطق التي كانت فيها مصانع الإقطاعي القديمة. وكان عدد هائل من العمال يعمل عند أفران الصهر، وعدد أكبر يستخرجون الخامات من الجبل، وزاد طمع الإقطاعي تجاه المال، ومهما جلبت له من المال كان يجد أين يضعه، فزادت ثروته كثيراً، واشتد حسد جيرانه من الإقطاعيين فقدموا شكوى ضده بأن منطقة المصانع هي من أراضيهم، ويجب إعادتها إليهم. لكن الإقطاعي في تلك الفترة صار بالغ النفوذ، وأصدقاؤه من الأمراء والنبلاء الكبار، ففشل الإقطاعيون في خطتهم.

أما الشعب العامل فكان يعيش حياة قاسية وصعبة، وانزعج الصناع كثيراً لأن الإقطاعي خدعهم. فقد كان في بداية سير العمل يتودد إلى الصناع ويقول لهم:

اصبروا يا شيوخي، فالعاصمة موسكو لم تبن في يوم واحد، فما إن ننظم العمل في المصانع حتى تتحسن أحوالكم.

ولكنهم لم يروا أي تحسن في حالهم، فقد زادت أمورهم سوءاً، وصار الناس يموتون في المناجم من شدة التعب وقسوة العمل، وصار الجلادون يعذبون الصناع ويضربونهم على أسنانهم ويقولون: لا تأملوا خيراً من مساعدتكم للسيد في يوم من الأيام. فنحن أصبحنا نعرف أسرار المهنة أفضل منكم.

وأصبح الجميع في ذلك الوقت ينادون الإقطاعي بالسيد، وقد نسي الطريق إلى المصنع تماماً. فلم يبق لديه الوقت الكافي لذلك إذ كان المال كثيراً وكان عليه إحصاءه.



فقال الصناع الذين أقنعوا الناس بالانتقال إلى هذه المناطق: يجب أن نذهب إلى السيد نفسه، فصحيح أنه أصبح سيداً ولكنه رجل لبق، ويفهم أمورنا. ولا شك أنه لم ينس كيف احتفل معنا؟ فلنذهب ونحدثه عن أوضاعنا بصراحة.

وهكذا ذهبوا جميعهم إلى السيد، ولكن الخدم لم يسمحوا لهم بمقابلته. وقالوا لهم: إن السيد شرب قهوته وذهب للنوم. عودوا إلى أعمالكم واعملوا بجد.

فضاج الحشد وصاحوا: أي نوم هذا في وسط النهار، اذهب وأيقظه فليخرج إلى ناسه.

سمع السيد هذا الضجيج فخرج ومعه حشد من الحرس.

وكان آندريه أشجع الصناع وصاح بصوت عالٍ يقول: هل تذكر الملح؟ ماذا كنت لتفعل بدون الملح؟

كيف لي ألا اذكر الملح. اقبضوا عليه واجلدوه جيداً ورشوا عليه الملح، لتتحسن ذاكرته.

فصار الحرس يقبضون على بقية أفراد الحشد، وخاصة على الذين يشير السيد بإصبعه عليهم. ولكنه كان ماكراً جداً ولم يتصرف كما كان يتصرف مديرو خزينة الدولة، فلم يكن يقبض على الناس ويلحق بهم الأذى، كي لا يخسر اليد العاملة لديه. ورغم أنه لم يكن يذهب إلى المصنع إلا أنه كان يعرف عن كل عامل كل شيء وكل ما يجري في غيابه. فضرب الحرس الصناع الذين يتحدثون بصراحة، أما الذين لم يتحدثوا بشيء فلم يضربوهم. بل هددهم الإقطاعي قائلاً: احرصوا على ألا يلحق بكم نفس الأذى، في حال لم تجتهدوا في العمل.

فخاف هؤلاء من الجلد. وكان السيد يخاف من نقص العمال، فقد بدأ الصناع الشيوخ يموتون بعضهم من الهرم وآخرون من الجلد والعمل الشاق. وعندما توفي الصانع الذي علم آندريه حل آندريه محله، وكان في البداية يعمل جيداً وأظهر

نفسه عاملاً ماهراً، وكان خدم تورتشانينوف يسخرون منه ويلقبونه بالمالح. ولم يكن ينزعج من ذلك ويقول: اللحم المالح أقسى من غيره.

فوثقوا به كثيراً، وعندها استغل فترة غيابهم وصهر قفل فرنين فأغلقهما، فقبض عليه الحرس وقيدوه بالسلاسل في الجبل، وكان صناع الجبل يحبون آندريه فحاولوا بشتى الطرق تحريره، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك، فقد كان الحرس كثيراً.

وهل يستطيع الإنسان أن يصمد طويلاً في وضع كهذا قبل أن يصاب بالمرض؟ كما أن الحرس كانوا يبخلون عليه بالماء ويقولون له اشرب من ماء المنجم، وهي مياه تضر القلب. وكان مشرف المناجم يقول: انتظر قريباً ستموت وترتاح وسندفنك هنا بدون أي عناء.

وهكذا كانوا ينوون دفنه هنا، وكان آندريه يشعر بأن حاله ليست على ما يرام، وأنه ما يزال شاباً ولم تكن لديه رغبة بالموت، ففكر في نفسه:"عبثاً يتحدث الناس عن سيدة الجبل النحاسي، ويقولون إنها تساعد الناس، فلو أنها كانت موجودة لساعدتني في محنتي، فلا شك أنها رأت أنني مقيد هنا في الجبل. فما يرويه الناس خيال وهم يواسون أنفسهم به".

وما إن فكر بذلك حتى سقط من شدة التعب في مكان وقوفه وانتشر رذاذ الماء من حوله، وكان ماء المناجم بارداً، ولكنه لم يشعر بشيء، وظن أن نهايته قد أتت. ولم يدر كم بقي في هذا المكان، ولكنه وبعد فترة شعر بالدفء، وكأنه كان مستلقياً فوق العشب، ونسمة ريح لطيفة تلامس وجهه والشمس الدافئة تشرق فوقه، وكأنه في فترة حصاد.

وكان آندريه مستلقياً يفكر في نفسه:"لا شك أنني حلمت بالشمس قبل موتي". وازداد شعوره بالحر، ففتح عينيه، ولم يصدق نفسه لأول وهلة، فلم يكن في الجبل بل كان في غابة وفوق رأسه أشجار السرو العالية، وحوله العشب والحجارة الصغيرة، وعلى يمينه صخرة كبيرة كالجدار أعلى من أشجار السرو.

فصار آندريه يلمس جسمه بيديه ليتأكد إذا ما كان نائماً، وقطف القليل من العشب وحرك رجليه، ورأى أن الطين الذي عليهما هو طين المناجم ولكن لا أثر للسلاسل، ففكر في نفسه:"لا شك أنهم أخرجوني ميتاً وفكوا قيودي ووضعوني هنا وعدت أنا إلى الحياة هنا. فما العمل الآن؟ هل أهرب أم أنتظر؟ ولكن من الذي أتى بي إلى هذا المكان؟".

نظر خلفه ورأى عند الصخرة منديلاً فيه خبز، فانتعش آندريه وقال لنفسه: "لا شك أنهم أصدقائي الذين أخرجوني ولم يعتبروني ميتاً، لأنهم وضعوا لي الخبز والشراب. ولا شك أنهم سيأتون لزيارتي عندما يحل الظلام، وعندها أعرف كل شيء".

أكل آندريه الخبز كله حتى آخر قطعة وشرب كل الشراب واستغرب من أنه لم يسكر منه، بل كان شراباً يزيد من قوة الإنسان، وشعر بتحسن كبير بعد تناوله للطعام، وبأنه يستطيع أن يعيش دهراً في هذا المكان ولا يرغب بمغادرته ، ولكنه فكر في نفسه:"ماذا أفعل الآن؟ من الجيد أن يأتي أصدقائي، ولكن ماذا أفعل إذا جاء الحرس ووجدوني هنا؟ يجب أن أفحص هذا المكان، وليتني أستطيع أن أستحم، وأجد لنفسي ثياباً أخرى".

فصعد إلى الحجر ورأى أن المصنع قريب وأن الناس قريبون وكثيرون كالذباب، فخاف آندريه أن يشاهدوه من هناك، فنزل من فوق الحجر وجلس في مكانه القديم يفكر، ورأى سحالي تركض أمامه، وكانت السحالي كثيرة، ومن مختلف الألوان، واثنتان فقط مميزتان ولونهما أخضر، واحدة كبيرة وأخرى أصغر حجماً.

وكانت السحالي تركض فوق العشب وكأنها تلعب، ويبدو عليها المرح تحت الشمس. فجلس آندريه يراقب السحالي ولم يلحظ كيف جاءت غيمة كبيرة، وبدأ المطر يهطل. فاختبأت السحالي فوراً، و بقيت السحليتان الخضراوان فقط تلعبان وتركضان خلف بعضهما بعضاً بالقرب من آندريه. وعندما اشتد هطول المطر اختبأت السحليتان أيضاً. ورأى آندريه الأمر مسلياً، في حين أنه لم يختبئ من المطر،

فقد كان المطر دافئاً فخلع آندريه ثيابه وأخذ يستحم بماء المطر، وفكر في نفسه:"على الأقل سيزيل عني بعض الأوساخ". وبعد أن توقف المطر عادت السحالي تلعب، بينما شعر آندريه بالبرد، فقد حل المساء وغربت الشمس. ففكر آندريه: "يا ليت الإنسان كان بمقدوره الاختباء تحت الصخرة عند الحاجة ويجعلها بيته".

واستند بيده على الصخرة ولم يضغط عليها بقوة إلا أن الصخرة اهتزت وكادت تقلب على آندريه، فقفز آندريه مبتعداً وعادت الصخرة إلى مكانها.

"ما هذا... فكر آندريه – يا لها من صخرة ضخمة وتهتز بكل سهولة، فقد كادت أن تسحقني".فاقترب أكثر وتفحص الصخرة من جميع الجهات، ولم يجد فيها أي ثغرات، فقد كانت مغروسة عميقاً في الأرض، فضغط بيديه في مكان ثم ضغط في مكان آخر، ورأى أنها صخرة كأي صخرة أخرى، وفكر: "هل يعقل أن تتحرك الصخرة؟"

"لا شك أنني أصبت بالدوار بسبب المرض، وتراءى لي الأمر"... فكر آندريه وعاد للجلوس في مكانه القديم.

وبقيت السحليتان تركضان في نفس المكان، فلمست إحداهن نفس المكان الذي لمسه آندريه فاهتزت الصخرة، وانشقت على طولها، فدخلت السحلية فيه وعادت الصخرة إلى وحدتها. وركضت السحلية الأخرى نحو حافة الصخرة، واختبأت هناك، وكأنها تحرس شيئاً ما وتنظر إلى آندريه.

ثم عادت السحلية الثانية من خلف الصخرة، وتابعت السحليتان تلعبان بعض الوقت ثم هربتا بعد أن بينتا لآندريه مكان الدخول إلى الصخرة ومكان الخروج منها. ففكر آندريه في نفسه : "لأجرب مرة ثانية". فاستند مرة ثانية إلى الصخرة فمالت الصخرة عليه ولكنه لم يبتعد عنها، بل أخذ ينظر إلى الأسفل، فرأى سلماً قد بان في الأسفل، كالسلم في منزل السادة، فداس آندريه على الدرجة الأولى، وبانت السحليتان أمامه تدلانه على الطريق، وتابع النزول واستند بيده إلى الجدار وفكر في نفسه: "إذا أبعدت يدي عن الصخرة يمكن أن ينغلق الباب وألا يفتح مرة ثانية "

فوقف حائراً، ونظرت إليه السحليتان وكأنما تنتظران شيئاً ما. ففكر آندريه: "لا شك أن سيدة الجبل النحاسي تختبر شجاعتي، فاختبار الشجاعة عندها لديه الأولوية دائماً.

فاستجمع شجاعته وسار سريعاً وانغلقت الصخرة وراءه، وأضاء المكان من حوله وكأن الشمس كانت داخل الصخرة، وأصبح كل شيء واضحاً أمامه.

نظر آندريه أمامه ورأى بابين مزينين بالنقوش الحجرية، وعلى اليمين باب صغير، فتوجهت السحليتان إليه، فتح آندريه هذا الباب ووجد فيه حماماً روسياً بخارياً على أصوله، ولكنه لم يكن من الخشب بل من الحجر، وكانت كل الأغراض الضرورية موجودة هناك، ففرح آندريه كثيراً وأراد أن يجفف ثيابه أولاً فوق الأحجار الساخنة ولكن ما إن خلع ثيابه حتى اختفت الثياب وكأنها لم تكن، فنظر خلفه ورأى فوق المقعد ثياباً جديدة نظيفة وكثيرة من جميع الأصناف، من ثياب السادة وثياب الإقطاعيين وثياب العمال وكلها جديدة. فلم يطل آندريه التفكير في الأمر بل سارع في الاستحمام ثم جلس يرتاح قليلاً، وارتدى ثياب العامل التي اعتاد عليها، وخرج من الحمام، ورأى السحليتان تنتظرانه عند الباب الكبير.

فتح الباب الكبير ورأى أمامه صالة ضخمة لم ير مثلها في أحلامه، وكانت جدرانها حجرية ومزينة بالنقوش الفاخرة، وفي وسط الصالة طاولة مليئة بالطعام والشراب من جميع الأصناف. وكان آندريه جائعاً جداً فلم يفكر كثيراً وجلس يتناول الطعام، وكان الطعام عادياً ولكن الشراب كان غريباً، فقد كان شراباً قوياً ولكنه لا يسكر. شبع آندريه وكأنه كان خلف طاولة احتفال، ثم انحنى للسحليتين وقال: شكراً لكما يا سيدتيّ على هذا الطعام اللذيذ.

وأومأت له السحليتان بسرور، ثم قفزت السحلية الصغيرة من فوق المقعد وركضت، فتبعها آندريه، واقتربت السحلية من السرير وتوقفت وكأنها تقول:"تفضل ونم على السرير"، فاستجمع آندريه شجاعته واستلقى على السرير ونام، وكان السرير فاخراً، فذهب الشاب في نوم عميق فوراً، وعندها أطفأت الأنوار.


МЕДНЫЙ ЗАВОДЪ
ТУРЧАНИН

أما في منطقة المناجم فقد جاء المشرف في الصباح ليرى إن كان السجين ما يزال حياً أم مات، فوجد القيود الحديدية لا أكثر، فأصابه القلق وصار يتساءل: إلى أين ذهب السجين؟ وماذا أفعل الآن؟

وبعد أن تفحص المكان ولم يجد أي علامات لآندريه، لم يدر ماذا يفعل، إذ لا يستطيع أن يخبر الإدارة، لأنه هو الذي سيتحمل المسؤولية، وسيقولون إنه لم يحرس السجين جيداً. فوصل أخيراً إلى فكرة أن يهدم سقف المكان، فلن تبحث الإدارة كثيراً في الأمر، وهكذا فعل ثم ذهب وأخبرهم قائلاً: لقد حدث انهدام في مكان السجين، ويبدو أنه مات هناك. ولا داعي للبحث عنه فالسقف هناك ليس متيناً، والميت لا يهمه أين يدفن.

فرأى العمال أن الأمر غريب شيئاً ما ولكنهم صمتوا ولم يتكلموا بل فكروا في أنفسهم: "لا شك أنه تعذب كثيراً، وليس باستطاعتنا فعل شيء له".

وهذا ما نقلته الإدارة للسيد فقالوا: لقد سحقت الحجارة ذلك المالح الذي صهر أقفال الأفران.

ولم يضيع السيد فرصة المكسب في هذه الحالة أيضاً وقال: إن الرب نفسه عاقبه، يجب أن نخبر القساوسة عن هذه الحادثة، ليدعوا الناس إلى طاعة السادة.

فنشر القساوسة الخبر وعرف الجميع قصة آندريه. وأشفقوا عليه وقالوا: لقد كان شاباً جيداً، ولم يبق الكثير من أمثاله.

في حين كان آندريه نائماً وهو ينعم بالدفء والراحة بعد أن استحم وتناول طعامه، فنام يوماً ويومين حتى شبع نوماً، وعادت إليه صحته، وكأنه لم يصب بالمرض ولم يسجن فترة طويلة، فنظر ورأى الطاولة من جديد مليئة بأصناف الأطعمة والسحليتان تجلسان وتنظران إليه.

شرب آندريه وأكل حتى شبع ثم انحنى للسحليتين شاكراً وقال: لقد آن أوان تشكر الإقطاعي تورتشانينوف على الملح الذي رشه على جروحي، ويجب أن نهديه هدية تجعله يعطس حتى تدمع عيناه.

فقفزت السحلية الصغيرة من فوق المقعد وركضت، وسار آندريه خلفها، فقادته السحلية إلى الباب الآخر، فدفع آندريه الباب ورأى سلماً يقود إلى السقف، وفي السقف مقبض نحاسي، فأدار آندريه المقبض وانفتح المخرج، فخرج آندريه من الصخرة ورأى أن الوقت اقترب من المساء والشمس قد غربت، ففكر في نفسه: "هذا ما أريده، فلأذهب في هذا الظلام إلى المناجم، لعلني أرى أحداً وأسأله كيف هي الأمور في المصانع".

فسار على مهل وبحذر كي لا يراه الحرس، واقترب من المناجم واختبأ خلف الأحراش، فرأى أشخاصاً كثيرين عند المناجم، ولكنه لم يجد الفرصة المناسبة، فليسوا هؤلاء من أصدقائه، وآخرين يعملون تحت نظر الحراس، وهنا ابتعد أحد العمال عن المجموعة واقترب من المكان الذي اختبأ فيه آندريه، وكان الظلام قد اشتد في ذلك الوقت، وكان العامل شاباً بسيطاً، ولكنه كان موثوقاً به، وكان يعمل في السابق كما عمل آندريه عند الأفران ثم تم نقله إلى المناجم. فقال له آندريه بصوت خافت:

ميخائيل اقترب مني.

فاقترب ميخائيل في البداية ليعرف من يناديه، ثم توقف وسأل: من يناديني؟

تعال أقول لك اقترب.

فاقترب ميخائيل أكثر وبدا عليه الخوف، فخرج آندريه عندها من خلف الأحراش، كي لا يشك ميخائيل فيه، فصرخ ميخائيل خائفاً وهرب. وحدث أن الصدفة أوصلت امرأة إلى نفس المكان فرأت آندريه وبدأت تصرخ بصوت عالٍ: الميت.. لقد رأيت الميت.

وميخائيل يصرخ أيضاً: لقد رأيت آندريه المالح، رأيته كما هو خلف تلك الأحراش.

فانتشر القلق بين الناس، وركض بعضهم إلى الإدارة يخبرونهم. وآخرون قالوا: يجب أن نرى ما الأمر.

وساروا حشداً كبيراً، فشعر آندريه بالخطر، وفكر في نفسه: "لا شك أنني إذا أظهرت نفسي سيقتلونني من الخوف". فابتعد إلى الغابة، وخاف الحشد التعمق في أعماق الغابة، فوقفوا قليلاً عند الأحراش ثم عادوا إلى منازلهم.

فدار آندريه حول المنطقة وسار ليلاً إلى المصنع مباشرة، فرأوه هناك وخافوا. فتركوا كل شيء وهربوا كل في اتجاه، أما الجلاد فقد صعد من شدة خوفه إلى سقف المنزل، فأنزلوه في اليوم التالي من فوق السقف فاقداً وعيه. وتمشى آندريه قليلاً أمام الأفران، ثم أغلق الأفران جميعها بأن صهر أقفالها وسار إلى الإقطاعي.

فسمع الإقطاعي بوجود الميت في المنطقة، وأمر بإحضار القساوسة، ولكن الوقت كان متأخراً فلم يستطيعوا إحضارهم، وعندها حبس الإقطاعي نفسه في البيت ومنع الخدم من فتح الباب لأحد. فرأى آندريه أنه لا سبيل لإيجاده، فعاد إلى الصالة المخصصة له في الصخرة، وقال في نفسه: "انتظر سأذكرك بالملح يا إقطاعي".

وفي اليوم التالي انتشرت الفوضى في المصانع فجميع الأفران كانت مخربة، فأمر السيد عماله بإخراج الميت ودفنه جيداً وفق جميع القواعد كي لا يظهر مرة ثانية.

فأزالوا الحجارة ولم يجدوا الجثة تحتها، بل فقط القيود الحديدية التي لم تكن محطمة بل كاملة. فاستدعوا المشرف وسألوه، وحاول المشرف أن يلقي اللوم على العمال، ثم روى للسيد كيف كان الأمر. وما إن أخبر السيد حتى بدأ الأخير يصرخ ويهدد: اقبضوا عليه إن كان حياً.

وأمر جميع حراسه بتفتيش الغابة، ولم يعلم آندريه بهذا الأمر فخرج مساءً إلى الجبل وجلس عند الصخرة يفكر، كيف له أن يقابل أصدقاءه، وكانت لديه فتاة يحبها ويريد رؤيتها، فقال في نفسه: "لا شك أنها صدقت أنني مت، فهل بكت علي يا ترى؟".

ولسوء حظه أن عدة نساء كن يمشين في الغابة في ذلك المساء،عائدات من الحصاد، ومررن بالقرب من الصخرة. فسمع آندريه كيف كن يغنين الأغاني، ثم سمع حديثاً دار بينهن، فقالت إحداهن: هل رأيت حالة مارينا منذ أن سمعت بخبر آندريه وأنه حي.

فردت أخرى: وكيف لا يكون حياً، إذا قام بتخريب جميع الأفران.

- وماذا فعلت مارينا؟ فلا شك أنها قررت البحث عنه؟

إنها غبية، فقد تحدثت إليها كثيراً البارحة، ولكنها لم تستمع إلى العجائز من حولها. فهي تخشى أن يأتي آندريه إلى نافذتها، وتقضي وقتها في البكاء.

إنها غبية ولا تستحق شاباً كآندريه، يا ليته كان عندي مثله لما خفت منه ولو كان ميتاً.

سمع آندريه هذا الكلام، وفكر في نفسه: "ليتني أستطيع أن أبعث لمارينا مرسالاً مع هؤلاء النسوة".

فسار باتجاه الأصوات، ورأى فتيات يعرفهن، ولكنه لم يستطع الظهور أمامهن. فقد رأى أن الناس كثيرون وهناك أولاد وأطفال. فكيف سيظهر؟

فنظر مطولاً ثم عاد أدراجه، وجلس في مكانه القديم حزيناً. ويبدو أنه خلال سيره رآه أحد الخدم عند السيد فركض وأخبر البقية فجاءوا وأحاطوا بالصخرة وهم يضحكون، فأمر كبيرهم: اقبضوا عليه.

فرأى آندريه أنهم أحاطوا به من جميع الجهات، فضغط على الصخرة وابتلعته الصخرة وكأنه لم يكن. فاقترب الخدم ولم يجدوا أحداً. فأين اختفى؟ وأخذوا يضغطون بكل ثقلهم على الصخرة، ولكن إزاحتها من مكانها كانت مستحيلة، ففكروا قليلاً وغمرهم الخوف من جديد.

لا شك أنه ميت فعلاً طالما أنه دخل الصخرة.

فركضوا إلى السيد يخبرونه عن الأمر، فأخذ السيد يرتجف من شدة الخوف. وقال: علي أن أسافر إلى العاصمة لأمر ضروري، وأنتم هنا حاولوا القبض عليه بدوني، فإن لم تقبضوا عليه سأعاقبكم بشدة.

وبعد أن هدد ركب حصانه وانطلق، فلم يدر الخدم ماذا يفعلون، وقرروا أنه عليهم حراسة الصخرة، وكان آندريه يفكر بدوره داخل الصخرة: "ما العمل؟ هل أجلس بلا عمل، وبالمقابل لا أستطيع الخروج؟ فلأحاول الخروج ليلاً وعندها أرى ماذا أفعل".

وأراد أن يأخذ القليل من الطعام معه، فلم ير السحليتين، فشعر بالحرج وقال: "حسناً سأحاول أن أبقى بلا طعام، فإن بقيت حياً يمكنني إيجاد الخبز".

ثم نظر إلى الصالة الجميلة، ومتع نظره بها وقال: شكراً لهذا المنزل، سأذهب الآن إلى منزل آخر.

وهنا ظهرت أمامه سيدة المنزل كما يجب أن يحدث، فوقف الشاب مندهشاً من شدة جمالها. فقالت السيدة: لا طريق للأعلى بعد الآن، بل هناك طريق آخر تسير فيه، ولا تقلق بشأن الطعام، فقد استحققت أن تحصل على ما تريد، وسيقودك الطريق إلى حيث يجب أن تذهب. ادخل في تلك الأبواب، ولكن شرط ألا تلتفت وراءك، اتفقنا؟

حسناً اتفقنا... رد آندريه – وشكراً لك على كل شيء.

ثم انحنى لها وسار باتجاه الأبواب، وهناك رأى أمامه فتاة تشبه السيدة تماماً، ولكنها أشد جمالاً، فلم يتحمل آندريه ألا ينظر خلفه، فالتفت ليرى تلك الأخرى؟ فهددته بإصبعها وقالت: نسيت وعدك أليس كذلك؟

نعم نسيت، فلم يبق في رأسي عقل.

يا لك من مالح، فأنت رجل بكل معنى الكلمة، وأمام الفتيات ضعيف، فماذا أفعل بك الآن؟

إنها إرادتك افعلي بي ما شئت.

حسناً سأسامحك لأول مرة، ولكن لا تلتفت مرة ثانية، لأن الأمر سيسوء عندها.

فسار آندريه وفتحت الأخرى الأبواب أمامه وامتدت الصالات المضاءة وبدا وكأن لا نهاية لها.

فهل التفت آندريه مرة أخرى أم لا؟ لا أعرف، لأن الشيوخ لم يخبروني بذلك. ولكن منذ ذلك الحين لم يروا هذا الشاب في مناطقنا، ولكنهم بقوا يتذكرونه، فقد أرعب الإقطاعي وأزعجه.

أما خدم الإقطاعي فقد بقوا يحرسون الصخرة ليلاً نهاراً، وكان الناس يذهبون قصداً لرؤية هؤلاء الحمقى، ثم ملوا وأخذوا يطلقون النار على الصخرة، وجلبوا العمال، فحطموا الصخرة، وكان السيد قد استجمع قوته وجاء يؤنبهم وقال:

لقد أضعتم وقتاً طويلاً وأنتم تحرسون هذه الصخرة في حين حدثت المشاكل والخسائر في المصنع فعودوا إلى أعمالكم هيا.



الغزال صاحب الحوافر الذهبية

عاش في مصنعنا عجوز يدعى إيفان، ولم يبق له أحد من عائلته، وأراد أن يتبنى طفلاً، فسأل الجيران إن كانوا يعرفون طفلاً قد تيتم حديثاً، فقال له الجيران: منذ فترة قريبة تيتمت عائلة غريغوري بوتوبايف. فأمر السيد بإرسال الفتاتين الكبيرتين إلى منزل السادة لتعلم الحياكة، أما الفتاة الصغيرة ذات الستة أعوام فلا أحد يريدها، فخذها أنت.

فقال العجوز: يصعب علي تربية فتاة، فالأفضل أن أتبنى صبياً، لكنت علمته مهنتي، أما الفتاة فماذا يمكنني تعليمها؟

ثم فكر قليلاً وقال: كنت أعرف غريغوري وأعرف زوجته، وكانا كلاهما مرحين وماهرين، فإذا كانت الفتاة كوالديها، فلن أشعر بالملل معها في المنزل، حسناً سآخذها ولكن هل ستذهب معي؟

فقال الجيران: حياتها في بيتها صعبة، فقد أعطى المشرف منزلها لخادم وأمر مقابل سكنه فيه أن يطعم اليتيمة إلى أن تكبر. وذلك الخادم لديه أسرة فيها عشرة أشخاص لا يجدون ما يأكلون، فتقوم زوجته بإزعاج الفتاة وتذكرها دائماً بلقمتها. ورغم أن الفتاة صغيرة إلا أنها تفهم كل شيء، ويصعب عليها تحمل الوضع، ولذلك سيسهل إقناعها فاذهب وحاول.

نعم هذا صحيح... أجاب إيفان – سأحاول إقناعها.

فجاء في يوم العطلة إلى تلك الأسرة التي كانت تعيش عندهم الفتاة اليتيمة، ورأى المنزل مليئاً بالناس كباراً وصغاراً، وعند المدفأة تجلس فتاة صغيرة وبجانبها هرة نحيفة جداً ومن النادر أن يهتم أحد بمثلها. وجلست الفتاة تربت على ظهر الهرة فيبدو على الهرة السرور. نظر إيفان إلى الفتاة وقال: أهذه هي ابنة غريغوري؟

فردت زوجة الخادم: نعم إنها هي، وقد وجدت هذه الهرة النحيلة في مكان ما، ولا نستطيع طردها، فقد هاجمت أولادي الصغار، بالإضافة إلى إطعامها.

فقال إيفان: يبدو أن أولادك ليسوا حنونين، انظري كم هي سعيدة في حضن هذه الفتاة.

ثم سأل الفتاة اليتيمة: ما رأيك يا داريا هل تذهبين للعيش معي؟

ولكنني لا أعرف من أنت... أجابت الفتاة.

أنا كالصياد، في الصيف أغسل الرمال، وأستخرج الذهب، وفي الشتاء أجوب الغابات بحثاً عن الغزال ولم أنجح في إيجاده حتى الآن.

وهل ستقتله؟

لا... أجاب إيفان – إنني أطلق النار على الغزلان العاديين أما هذا فلن أقتله، أريد أن أرى المكان الذي يدوس فيه بحافره الأمامي الأيمن.

ولماذا تريد معرفة ذلك؟

حسناً إن ذهبت للعيش معي أروي لك كل شيء.

فشعرت الفتاة بالفضول لمعرفة قصة الغزال، ورأت أن العجوز مرح وحنون. فقالت له: سأذهب ولكن آخذ الهرة موركا معنا. انظر كم هي لطيفة.

طبعاً لا مجال للحديث عن ذلك، فهرة كهذه ستكون لدينا عوضاً عن الآلة الموسيقية.

سمعت زوجة الخادم حديثهما وسرت به كثيراً، وبدأت تجمع أغراض الفتاة سريعاً خوفاً من تغيير العجوز لرأيه.

وبدت الهرة وكأنها فهمت الحديث كله، فقفزت إلى الأرض وبدأت تدور حول العجوز سعيدة وكأنها توافق على الذهاب معه. وهكذا أخذ إيفان الفتاة اليتيمة لتعيش معه. وسار العجوز الذي كان كبير الحجم ضخماً، والفتاة الصغيرة والخفيفة الوزن وراءه، وخلفهما الهرة النحيلة. وهكذا صاروا يعيشون سوية الجد إيفان والفتاة داريا والهرة موركا. وعاشوا بسعادة، ولم يكونوا يكسبون الكثير من المال ولكنهم لم يشكوا من ذلك، وكل كان لديه عمله، فالعجوز كان يذهب إلى عمله منذ الصباح الباكر، وداريا تنظف الكوخ وتحضر الطعام، والهرة موركا تقوم بصيد الفئران، وعند المساء يجتمعون ثلاثتهم سعداء.

وكان العجوز يتقن قص الحكايات، وداريا تحب سماع القصص، و كانت الهرة موركا تستلقي وتعبر عن إعجابها بموائها وكأنها تقول: صحيح... صحيح.

ولكن وبعد أن يقص العجوز قصة كانت داريا تذكره قائلة: جدي احك لي قصة الغزال. وصفه لي كيف يبدو؟

وكان الجد يعارض في البداية ثم يروي لها القصة: إن ذلك الغزال ليس عادياً، فلديه على رجله اليمنى حافر فضي، وفي المكان الذي يدوس فيه بذلك الحافر يظهر حجر كريم، فإن داس مرة واحدة ظهر حجر واحد، وإن داس مرتين ظهر حجران كريمان، وحيث يضرب الأرض بحافره كثيراً تظهر كومة من الأحجار الكريمة.

قال الجد ذلك وبدا حزيناً، ومنذ ذلك الحين لم يعد عند داريا حديث آخر إلا عن هذا الغزال. فكانت تسأل جدها: جدي هل هذا الغزال كبير؟

فحكى لها جدها أن طول الغزال لا يعلو عن طول الطاولة، وأرجله نحيلة، ورأسه خفيف الوزن.

فسألته داريا ثانية: جدي وهل لديه قرون؟

نعم إن قرونه طويلة، فالغزلان العاديين لديهم فرع في كل قرن من قرنيهما، أما هذا الغزال فلديه خمسة فروع في كل قرن.

وماذا يأكل هذا الغزال يا جدي؟

إنه يأكل الأعشاب وأوراق الشجر في الفصول الدافئة، ويأكل العلف في الشتاء.

وماذا يكسو جسمه يا جدي؟

في الصيف يكسو جسمه الوبر البني اللون وفي الشتاء يصبح وبره رمادياً، ورائحته من رائحة الغابات.

ومع حلول الخريف بدأ الجد إيفان يستعد للذهاب إلى الغابة، وكان عليه أن يفحص المناطق التي تكثر فيها الغزلان، فصارت داريا ترجوه قائلة: خذني معك يا جدي، عساي أرى ذلك الغزال من بعيد.

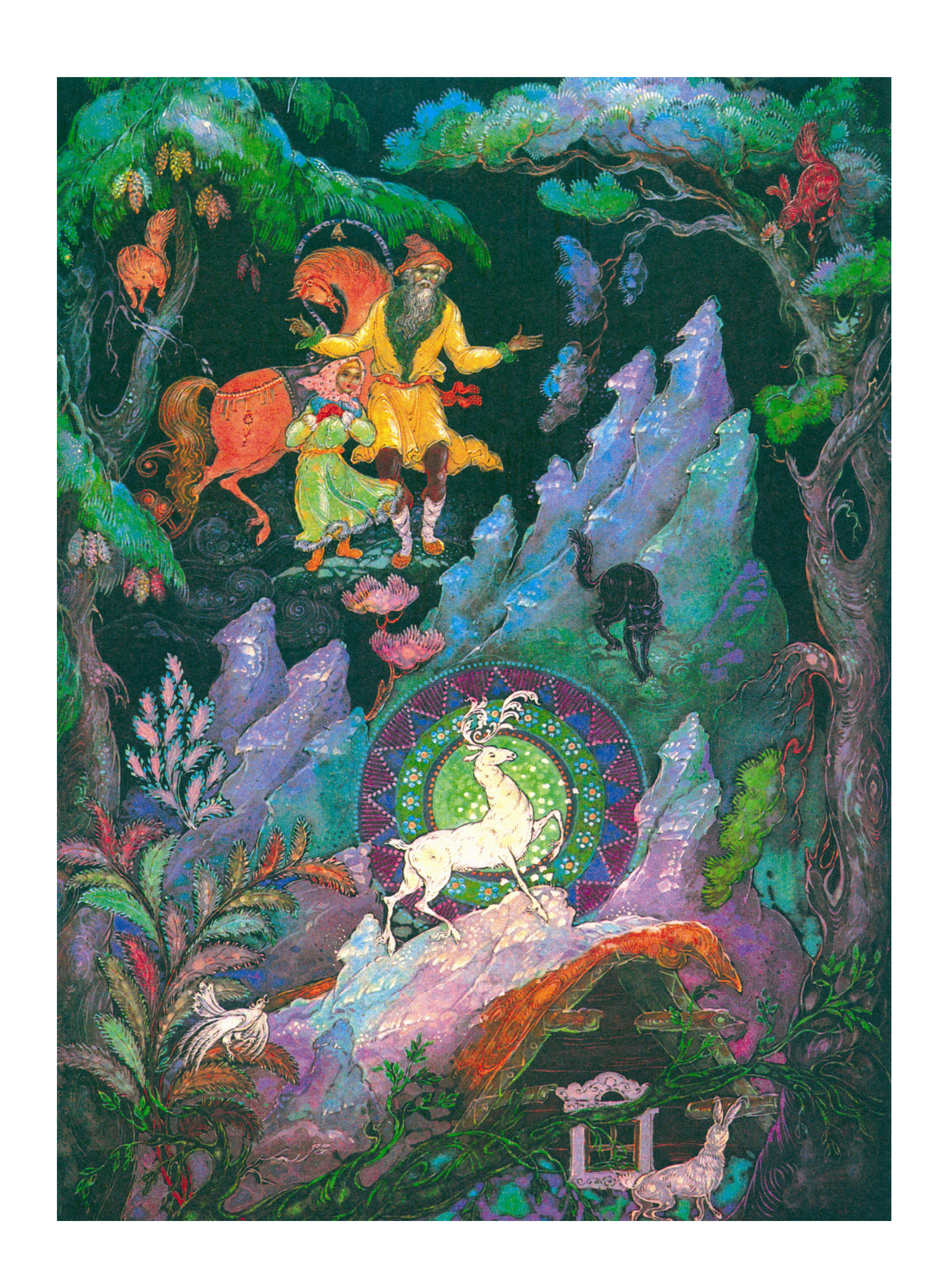
فشرح لها الجد قائلاً: لا يمكنك رؤيته من بعيد، فجميع الغزلان لديهم قرون في الخريف، ولا يمكنك التعرف على عددها من بعيد. بينما يختلف الأمر في الشتاء، فالغزلان العادية تصبح بلا قرون، بينما هذا الغزال صاحب الحافر الفضي لديه قرون طوال السنة سواء في الصيف أو الشتاء، وعندها يمكنك أن تعرفيه عن بعد.

عندها توقفت داريا عن طلب الذهاب معه، فبقيت في المنزل، وذهب الجد إيفان إلى الغابة. وبعد خمسة أيام عاد الجد إلى المنزل وقال لداريا: لقد وجدت عدداً كبيراً من الغزلان شرقي الغابة، وإلى هناك سأذهب في الشتاء.

وكيف ستنام في الغابة شتاءً؟ ... سالت داريا .

لدي هناك كوخ شتوي وفيه موقد ونافذة، والإقامة هناك مريحة.

فسألته داريا: وهل يأتي الغزال صاحب الحافر الفضي إلى تلك المنطقة.



من يدري ربما هو هناك.

فرجته داريا قائلة: خذني يا جدي معك. سأبقى جالسة في الكوخ فأرى الغزال إن اقترب.

فعارض العجوز في البداية وقال: لا .. لا يا داريا، فمن الخطر أن تتنزه فتاة صغيرة في الغابة، فأنا سأستخدم الزلاجات وأنت لا تعرفين استخدامها، فإن وقعت على الثلج أو الجليد فماذا أفعل بك؟ فستتجمدين من البرد.

لكن داريا عاودت رجاءها: خذني يا جدي فأنا أعرف ركوب الزلاجات قليلاً، فبقي الجد يثنيها، ولكنه في نهاية الأمر فكر في نفسه: "إن أخذتها مرة فإنها لن ترغب بالذهاب مرة ثانية".

فقال لها: حسناً سآخذك. ولكن لنتفق على أنك لن تبكي في الغابة ولن تطلبي العودة إلى المنزل قبل الأوان.

وعلى ذلك اتفقا. وعندما جاء الشتاء، أخذا يستعدان للذهاب إلى الغابة، فوضع الجد إيفان على الزلاجة اليدوية كيسين من الكعك، ومؤونة للصياد وغير ذلك مما يحتاجانه، وأخذت داريا كيساً لنفسها فيه أشياؤها وألعابها وكانت تنوي خياطة ثوب للعبتها، كما أخذت حبلاً، وفكرت في نفسها: "هل يمكنني أن أقبض على الغزال صاحب الحافر الفضي بواسطة هذا الحبل؟".

وشعرت داريا بالحزن على هرتها لأنها ستظل وحيدة، ولكن ما باليد حيلة، فجلست تربت على ظهر الهرة مودعة، وتتحدث معها: - سنذهب أنا وجدي إلى الغابة يا موركا، وعليك البقاء في المنزل واصطياد الفئران. وعندما نرى الغزال صاحب الحافر الفضي نعود إلى المنزل، وعندها سأروي لك كل شيء.

فنظرت الهرة نظرة ماكرة إلى الفتاة وبدأت تموء موافقة.

وهكذا ذهب الجد إيفان مع داريا، فاستغرب الجيران ذهابهما سوية وقالوا: لا شك أن العجوز فقد عقله حتى يأخذ فتاة صغيرة كهذه معه على الغابة شتاءً.

وعند خروج الجد إيفان وداريا من منطقة المصانع سمعا نباح كلاب الحراسة وبدا نباح الكلاب قلقاً وعلا تدريجياً وكأن الكلاب رأت حيواناً في الشارع، فالتفت الجد وداريا ليريا ما الأمر فرأيا الهرة موركا تركض وراءهما وتهرب من الكلاب، وكانت قد استعادت صحتها وعافيتها وأصبحت ضخمة الحجم، فلم تتجرأ الكلاب على الاقتراب منها، بل اكتفت بالنباح من بعيد.

حاولت داريا التقاط الهرة وإعادتها إلى المنزل، ولكن الهرة بقيت تسير خلفهما على مسافة. وعندما وصلت موركا إلى الغابة قفزت إلى شجرة سرو عالية، فأين للفتاة أن تطالها.

حاولت داريا مناداة الهرة حتى تنزل، ولكن بلا جدوى، فتابعا المسير، وعندما التفتا وجدا موركا تسير وراءهما، وهكذا وصلا إلى الكوخ، وصاروا ثلاثتهم في الكوخ، فقالت داريا مسرورة: سنتسلى أكثر ثلاثتنا. فوافق الجد وقال: طبعاً سنتسلى.

بينما التفت الهرة موركا على نفسها بجانب الموقد وأخذت تموء مسرورة وكانت الغزلان كثيرة في ذلك الشتاء، فكان الجد يصطاد غزالاً واحداً في اليوم، فجمعوا كمية كبيرة من الجلود، وملحوا لحوم الغزلان، وصار من الصعب نقل اللحم على الزلاجة اليدوية، وكان على الجد الذهاب إلى منطقة المعامل لإحضار حصان وعربة، ولكنه احتار كيف يترك داريا والهرة وحيدتين في الكوخ، وكانت داريا قد اعتادت على البقاء في الغابة، فقالت للجد: جدي عليك بالذهاب إلى منطقة المعامل لإحضار حصان وعربة إذ علينا نقل اللحوم إلى المنزل.

فرد عليها الجد مندهشاً: يا لك من ذكية يا صغيرتي. ولكنني أخشى عليك من أن تخافي إذا تركتك وحيدة هنا.

- ولماذا أخاف... ردت داريا – فكوخنا متين والذئاب لن تدخل إليه، وموركا معي، فلن أخاف. لكنك حاول أن تعود سريعاً.

وهكذا ذهب الجد إيفان وبقيت داريا وموركا في الكوخ. وكانت داريا معتادة على البقاء وحيدة خلال النهار، لأن الجد كان يذهب لاصطياد الغزلان... ولكنها

خافت قليلاً عندما بدأ الظلام يحل، ولكنها نظرت إلى موركا ووجدتها مطمئنة، فعاد إلى داريا مرحها. فجلست بجانب النافذة تنظر إلى التلال، ورأت شيئاً يتحرك سريعاً عبر الغابة. وعندما اقترب أكثر رأت داريا أنه غزال يركض، وساقاه نحيفتان ورأسه صغير، وكل قرن لديه خمسة فروع. خرجت داريا من الكوخ لتراه أكثر فلم تجده، فعادت إلى الكوخ وقالت: لا شك أنني كنت أحلم بجانب النافذة.

وكانت موركا توافقها على كل ما تقوله بموائها. فاستلقت داريا بجانب الهرة، ونامت حتى الصباح. ومر يوم آخر ولم يعد الجد إيفان بعد. فشعرت داريا بالملل ولكنها لم تبك، وجلست ممسكة بهرتها تقول لها: لا تحزني يا موركا، فالجد إيفان سيعود قريباً.

وعادت داريا للجلوس بجانب النافذة والتمتع بمنظر النجوم، وعندما قررت الذهاب للنوم، سمعت صوت حيوان يسير بجانب الكوخ، فشعرت بالخوف، ثم سمعت الصوت عند الحائط الآخر وكان الصوت خافتاً، ففكرت داريا في نفسها: "أيمكن أن يكون ذلك هو الغزال الذي رأيته البارحة؟".

واشتد فضولها لرؤية الحيوان، ففتحت الباب ورأت الغزال قريباً منها، ورفع الغزال قدمه الأمامية اليمنى وضرب بحافره الأرض، ورأت أن حافره كان فضياً لامعاً، وكل قرن لديه فيه خمسة فروع. فلم تدر داريا ماذا تفعل، فنادته بلطف قائلة: تعال .. اقترب.

فضحك الغزال ثم استدار وهرب، وعادت داريا إلى الكوخ، وحكت لموركا: لقد رأيت الغزال صاحب الحافر الفضي، ورأيت قرونه، ولكنني لم أر كيف يضرب بحافره ويترك على الأرض حجراً كريماً، لا شك أنه سيريني ذلك في المرة القادمة.

وجاء اليوم الثالث ولم يعد الجد إيفان، فاشتد قلق داريا، وجلست تبكي حزينة. أرادت أن تحكي مع موركا فلم تجدها في الكوخ، فاشتد خوفها، وخرجت من الكوخ تبحث عن الهرة.

وكان الليل مقمراً ومضاء والرؤية جيدة. فنظرت داريا ورأت الهرة على مقربة منها تستلقي بجانب العلف، وإلى جانبها الغزال.

وقف الغزال ورفع قدمه ذات الحافر الفضي اللامع. فهزت موركا برأسها وهز الغزال برأسه أيضاً، وكأنهما يتحدثان، ثم أخذا يركضان سوية، فركض الغزال قليلاً ثم توقف وأخذ يضرب الأرض بحافره عدة مرات، فاقتربت منه موركا، وركض الغزال مبتعداً ثم توقف وعاد يضرب الأرض بحافره، وهكذا بقيا يلعبان فترة طويلة في الغابة، ثم عادا إلى جانب الكوخ. وهنا قفز الغزال إلى سطح الكوخ وأخذ يضرب السطح بحافره الفضي، وبدأ الشرار يتطاير من تحت حافره وتتساقط الأحجار الكريمة الحمراء والزرقاء والخضراء والفيروزية.

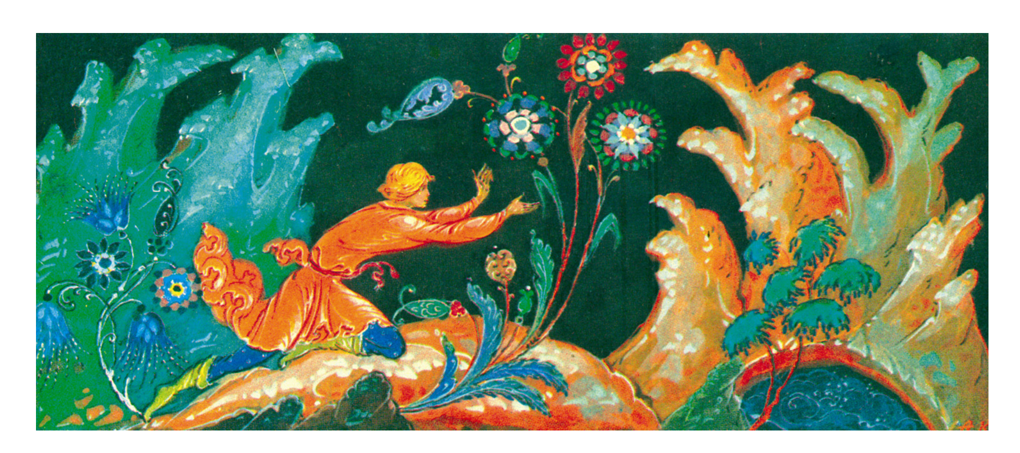
وفي تلك الفترة عاد الجد إيفان ولم يستطع التعرف على كوخه، فقد أصبح كله مثل كومة من الأحجار الكريمة، يسطع نوره بمختلف الألوان، وفوق سطح الكوخ يقف الغزال ويضرب بحافره الفضي، والأحجار تتساقط وتتساقط. وفجأة قفزت موركا إلى سطح المنزل ووقفت إلى جانب الغزال، وماءت بصوت عالٍ، فاختفيا كلاهما موركا والغزال.

فجمع الجد إيفان مباشرة نصف حقيبة من الأحجار الكريمة، ولكن داريا رجته قائلة: اتركها مكانها يا جدي، فغداً نخرج لنراها في ضوء النهار.

فاستمع الجد لطلبها. ولكن مع الصباح نزل ثلج كثير وغطى الأحجار كلها. وعندما أزالا الثلج لم يجدا تحته شيئاً، ولم يبق لديهما غير الأحجار التي جمعها الجد في حقيبته، ولكنها كانت كافية لهما.

وكان كل شيء جيداً، ولكنهما لم يريا موركا مرة ثانية، والغزال أيضاً لم يظهر مرة ثانية، فقد سلاهم مرة واكتفى.

وصار الناس يعثرون على الأحجار الكريمة في أرجاء الغابة حيث كان يركض الغزال مع موركا.



الوردة الحجرية

لم تقف شهرة التحف الحجرية الثمينة والمجوهرات المطعمة بالأحجار الكريمة على مناطق استخراج المرمر وحدها، ففي منطقتنا أيضاً كانوا يتقنون هذا الفن، ولكنهم كانوا يعملون على الحجر الأخضر، لأنه كان كثيراً ومن الصنف الأول، فكانوا يصنعون من الحجر الأخضر تحفاً رائعة الجمال ومجوهرات أنيقة.

وفي تلك الفترة كان حرفي اسمه ميخائيل هو الأفضل في مجاله، وكان عجوزاً هرماً. فأمر الإقطاعي أن يضع المشرف تلامذة يتعلمون الحرفة من العجوز ميخائيل. وقال له: فليتعلموا كل شيء حتى أدق التفاصيل.

ولكن العجوز ميخائيل لم يكن معلماً جيداً، وكان يضرب تلاميذه كثيراً ويصرخ عليهم، وكان يقول للمشرف: هذا لا يصلح فعينه غير موهوبة ويده ليست ماهرة، إنه لا ينفع.

ولأن الإقطاعي أمر المشرف بأن ينفذ كل رغبات الحرفي العجوز، فقد كان يقول لميخائيل: حسناً إن كان لا يصلح لهذه الحرفة، سأجلب لك آخر بدلاً عنه... ويذهب مباشرة لجلب ولد آخر.

سمع الأولاد عن هذا العلم... وصاروا يبكون خوفاً من الوقوع في أيدي الجد

ميخائيل. كما أن الآباء والأمهات لم يكونوا راغبين بتعريض أولادهم للعذاب، فصاروا يحاولون عدم إعطاء أولادهم ليعملوا في هذه الحرفة، كما أنها حرفة ضارة بالصحة، فصناعة الحجر الأخضر كلها سموم لجسم الإنسان، ولهذا حاول الأهل تجنيب أولادهم هذه الحرفة.

وبقي المشرف يتذكر أمر الإقطاعي وتابع تقديم التلامذة للجد ميخائيل، وكان الجد ميخائيل كعادته يعذب الصبي قليلاً ثم يعيده إلى المشرف. ويقول: هذا لا يصلح...

وبدأ المشرف ينزعج ويقول: إلى متى ستستمر هذه الحال؟ غير صالح.. غير صالح، فمتى سيصلح إذاً؟ حاول أن تعلم هذا...

وتابع الجد ميخائيل يرد بجوابه المعهود: ماذا يهمني في هذا الأمر، فحتى لو علمته عشر سنوات لن يتعلم هذا الصبي شيئاً... وأي صبي آتيك به هذه المرة؟

أنا لست بحاجة لأحد... ولا أشعر بالملل.

وهكذا جرب العجوز ميخائيل والمشرف عدداً كبيراً من الأولاد، وكانت النتيجة واحدة، فقد كان الأولاد يتعرضون للضرب ولا يفكرون إلا بالهرب، وكان منهم من يخرب قصداً كي يقوم ميخائيل بطرده.

واستمر الوضع على هذه الحال إلى أن وصل الدور إلى الصبي دانيال، الذي كان يتيماً وعمره يقارب الثانية عشرة وربما أكثر بقليل، وكان طويل القامة ونحيل البنية ووجهه جميل وشعره مجعد وعيناه زرقاوان. فأخذوه للعمل في البداية كخادم في بيت السادة، لينفذ الأوامر البسيطة، ولكنه لم يكن موهوباً في هذا المجال. فالصبيان الآخرون كانوا يتميزون بالحيوية في أعمال كهذه، وكلما نفذوا أمراً يعودون ويسألون: "بماذا تأمروننا؟"، بينما دانيال هذا كان يختبئ في زاوية الغرفة، ويحملق في لوحة جدارية ما، أو تحفة ما، ويبقى واقفاً هكذا، فيناديه السادة وهو لا يسمعهم، وكانوا يضربونه في البداية ثم ملوا وقالوا: يا له من صبي هادئ، لن يصبح خادماً جيداً.

ولكنهم لم يرسلوه رغم ذلك إلى المنجم لأنه عمل شاق جداً ولن يصمد حياً أكثر من أسبوع. فوضعه المشرف ليعمل راعياً، وهنا لم ينجح دانيال أيضاً، فهو ولد يحب العمل، ولكنه لا يتقن هذا النوع من الأعمال، ويبدو عليه الشرود والتفكير الدائم. فيجلس ويشرد في أوراق الأعشاب وينسى أمر الأبقار التي تذهب عنه مبتعدة، وقد كان الراعي حنوناً فأشفق على الصبي اليتيم، ولكنه أيضاً كان يعنفه أحياناً ويقول: ما الجدوى منك يا دانيال؟ ستقضي على نفسك وتعرض ظهري العجوز للضرب. إن عملك بهذه الطريقة لا يصلح؟ أخبرني على الأقل بماذا تفكر؟

أنا نفسي يا جدي لا أعرف... فأنا لا أفكر بشيء محدد... إنما شردت قليلاً. فقد رأيت حشرة زرقاء مائلة إلى الرمادي، وتحت أجنحتها منطقة صفراء، والورقة التي تجلس عليها عريضة، وعلى جوانبها مسننات، وأطراف الورقة ذات لون أخضر داكن ووسطها أخضر فاتح، وكأنه تم تلوينها قبل قليل... والحشرة استمرت في تقدمها...

آه يا دانيال ألست أحمقَ؟ فهل من اختصاصك أن تميز أوصاف الحشرات؟ فما لك وللحشرة الزاحفة فأنت وظيفتك مراقبة الأبقار، فحاول أن تخلص رأسك من هذه الحماقة، وإلا شكوتك للمشرف.

وكان دانيال يتقن شيئاً واحداً هو العزف على البوق، وكان كلما عاد من المراعي مساء، تطلب منه النساء والفتيات أن يعزف لهن على البوق ويقلن: اعزف لنا لحن أغنية يا دانيال.

فيلبي طلبهن ويعزف ألحاناً غريبة، كلحن صوت الغابة ورنين النهر وزغردة العصافير، وكان عزفه جميلاً جداً.

وكانت النساء تهتممن بدانيال مقابل عزفه، فمنهن من كانت تصلح له ثيابه الممزقة، وأخرى تخيط له قميصاً جديداً، ومنهن من تقدم له الطعام اللذيذ.

كذلك كان الراعي العجوز يحب ألحان دانيال.

ولكن حتى هذا الأمر لم يكن ينجح تماماً، فما إن يبدأ دانيال العزف حتى

ينسى العجوز كل شيء، فيصحو لنفسه فلا يجد الأبقار، وسبب له هذا العزف في نهاية الأمر مصيبة.

إذ يبدو أن دانيال نسي نفسه وهو يعزف، فنام العجوز وهو يسمع الألحان، فهربت منهما أبقار كثيرة، وعندما أخذا يستعدان للعودة إلى الحظائر، وجدا أنه ينقصهما عدد من الأبقار، فسارعا للبحث عنها، ولكن أين لهما أن يجدا الأبقار الضائعة، فالمنطقة التي كانا يرعيان فيها الأبقار كانت مشهورة بكثرة ذئابها المفترسة، ولم يجدا سوى بقرة واحدة.

فقادا القطيع إلى الحظيرة، وأخبرا الناس ما حدث معهما، فانطلق عدد من الأشخاص من سكان المصانع للبحث عن الأبقار الضائعة.

وكان العقاب معروفاً في ذلك الحين، فكل خطأ كان يعاقب مرتكبه بجلد ظهره، ولسوء حظهما كانت إحدى الأبقار من بيت المشرف، فلا تنتظر الرحمة أبداً هنا.

فتمت معاقبة العجوز أولاً ثم جاء دور دانيال، وكان الصبي نحيلاً جداً، فقال الجلاد: انظروا إليه إنه لن يصمد من ضربة واحدة وربما يموت فوراً.

ورغم ذلك ضربه ضربة ولم ينطق دانيال بكلمة واحدة، فضربه ضربة ثانية وثالثة، ودانيال بقي صامتاً، فاشتد غضب الجلاد فأخذ يجلد دانيال بلا رحمة وقال: سأجلدك أيها الصامت إلى أن تصرخ من الألم.

وكان دانيال يرتجف بكامل جسمه ودموعه تتساقط ولكنه بقي صامتاً، فعض على شفته وقوى نفسه، حتى أغمي عليه ولم يطلق صرخة واحدة، فاستغرب المشرف وقال: يا له من صبور، بت أعرف أين أضعه في حال بقي حياً.

قضى دانيال عدة أيام في فراشه، واعتنت به جدة حكيمة تعالج الناس حتى شفي، فقد كانت هذه العجوز تقوم مقام الطبيب في مناطقنا وكانت مشهورة جداً بمعرفتها لقوة الأعشاب الشافية، فتعرف العشبة التي تزيل ألم الأسنان والتي تزيل ألم الظهر والتي تشفي من مرض ما... وكانت تجمع تلك الأعشاب بنفسها، كل

عشبة في وقت قوتها العلاجية، وكانت تحضر الأدوية والمراهم من تلك الأعشاب.

فقضى دانيال عدة أيام سعيدة عند هذه العجوز الطيبة، فقد كانت لطيفة وتحب التحدث مع الناس، وكانت الأعشاب المجففة من مختلف أصنافها معلقة على جدران الكوخ.

واشتد فضول دانيال ليعرف ما اسم كل نبتة وأين تنبت ؟ وكانت العجوز تشرح له ذلك. ومرة سأل دانيال: هل تعرفين جميع الأزهار في مناطقنا يا جدة؟

لا أتباهى بنفسي... ردت الجدة، ولكن يبدو لي أنني أعرف جميع الأزهار المتفتحة.

وهل هناك أزهار غير متفتحة.

نعم فهناك وردة تتفتح في يوم القديس إيفان، وهي وردة سحرية يكتشفون بواسطتها الكنوز، ولكنها تضر الإنسان، فإن قطفتها تفتح أمامك جميع الأبواب، وهي وردة السارقين.

وهناك الوردة الحجرية، يقال إنها تنبت في جبل الحجر الأخضر، وعندما يأتي عيد الأفعى تكتسب هذه الوردة كامل قوتها، ومسكين الشخص الذي يشاهد الوردة الحجرية.

لماذا هو مسكين يا جدة؟

هذا ما لا أعرفه يا صغيري، فهذا ما رووه لي.

ولم يكن عند دانيال أي مانع من البقاء فترة أطول عند الجدة، ولكن جواسيس المشرف عرفوا أن الصبي عاد يقف على رجليه، وأخبروا المشرف بذلك.

فاستدعى المشرف دانيال وقال له: اذهب الآن إلى العجوز ميخائيل، وتعلم عنده الحرفة، فذلك العمل يناسبك تماماً.

ولم يكن باليد حيلة، فذهب دانيال إلى العجوز ميخائيل ومازال ضعيفاً يترنح في مشيته.

نظر إليه العجوز وقال: ما كان ينقصني إلا تلميذ مثلك، فالصبيان الأصحاء لم يقدروا على تعلم الحرفة، وأنت جئتني مريضاً وتقف على قدميك بصعوبة.

فذهب العجوز إلى المشرف وقال: لست بحاجة إلى تلميذ كهذا، إذ يمكنه أن يموت عندي فأتحمل مسؤوليته.

ولكن المشرف لم ينصت إليه، بل قاطعه وقال: أرسلناه إليك فعلمه بدون نقاش، فهذا الصبي قوي، ولا تنظر إلى نحفه الجسدي.

حسناً كما تشاءون... رد العجوز – سأعلمه ولكنني لست مسؤولاً عن شيء.

لا تخف فهذا الصبي يتيم وليس لديه أحد يلومك على شيء، فافعل به ما شئت... أجاب المشرف.

عاد العجوز ميخائيل إلى منزله، ورأى دانيال يقف بجانب الآلة ويتفحص قطعة من الحجر الأخضر كان عليها نقش، فأخذ دانيال يمعن نظره في هذا النقش ويهز برأسه، فشعر العجوز بالفضول لمعرفة ما الذي جذب اهتمام هذا الصبي الجديد في قطعة الحجر، فسأله بجدية كما كان مطلوباً من المعلم وقال: ما هذا الذي تفعله؟ ومن طلب منك أن تمسك الحجر بيدك؟

فأجابه دانيال: أعتقد يا جدي أن النقش كان يجب أن يحفر على الوجه الآخر من الحجر.

فصاح فيه العجوز: ماذا؟ ومن أنت حتى تعلمني حرفتي؟ ولم يسبق لك أن حفرت حجراً واحداً؟

أنا متأكد أن الحفر بهذه الطريقة يتلف الحجر.

من الذي أتلف الحجر؟ وهل ستعلمني حرفتي أيها الولد وأنا في هذه المنطقة المعلم الأول؟ سوف أعاقبك عقوبة شديدة لن تبقى بعدها حياً.

وظل العجوز يهدد ويصيح فترة من الزمن ودانيال لم يحرك ساكناً، وكان

العجوز قد فكر كثيراً من أي جانب يحفر النقش على ذلك الحجر، وقد أصاب دانيال لب الموضوع بحديثه.

وعندما انتهى العجوز من الصياح قال موافقاً: حسناً أيها الحرفي الجديد، أرني كيف نفعل بطريقة صحيحة؟

فصار دانيال يعمل ويشرح ما يفعله، ونقش نقشاً جميلاً، فصاح فيه العجوز قائلاً: لا تتباهى كثيراً، فما زلت لا تفهم الكثير، فإن جمعت المعرفة فاحرص على عدم فقدانها.

بينما فكر في نفسه: "نعم إن الصبي يقول الحق، ولا شك أنه سيكون حرفياً ناجحاً، ولكن ما السبيل إلى تعليمه؟ فإذا ضربته مرة فإنه لن يتحمل ذلك بجسمه النحيل".

وبعد أن فكر قليلاً سأل الصبي: ابن من أنت؟

فحكى له دانيال قصته، وأخبر العجوز أنه يتيم، ولا يتذكر أمه ولا يعرف شيئاً عن والده، ومن كان. ولا يعرف اسم عائلته، وحكى كيف عمل خادماً وكيف طردوه فيما بعد، ثم عمل راعي بقر في الصيف، وتعرض للعقاب الشديد.

فأشفق عليه العجوز ميخائيل وقال: أرى أنك أيها الفتى عشت حياة صعبة، وقد أتت بك الأقدار إلي، ومهنتنا صعبة ودقيقة.

ثم ظهر عليه بعض الغضب وقال: حسناً هذا يكفي، يا لك من محب للتحدث، وكل شخص يستطيع أن يعمل بلسانه بدلاً من العمل بيديه. سوف أرى غداً ما الفائدة منك، هيا اجلس وتناول عشاءك ثم اذهب إلى النوم.

وكان العجوز ميخائيل يعيش وحيداً، فقد توفيت زوجته منذ زمن بعيد، وكانت جارته العجوز ماريا تساعده في إدارة أمور منزله، فكانت في الصباح تأتي وتحضر الطعام وتنظف الكوخ، بينما كان العجوز ميخائيل يقوم بأعمال المنزل مساء بنفسه.

وبعد أن تناولا طعامهما قال العجوز: استلق هنا على السرير لتنام.

فخلع دانيال حذاءه، ووضع معطفه تحت رأسه، وتكور على نفسه، فقد كان الكوخ بارداً، لأن الجو كان خريفياً، وبعد فترة ذهب في نوم عميق.

كذلك استلقى الجد ميخائيل لينام ولكنه لم يستطع النوم، فلم يتوقف عن التفكير بالحديث حول النقش على الحجر الأخضر، وظل يتقلب في سريره ثم نهض وأشعل شمعة وتوجه إلى آلة نحت الحجر، وأخذ يقيس ويجرب القطعة الحجرية، ومهما فعل كان يكتشف أن الصبي أدرك صحة طريقة النقش بصورة أفضل.

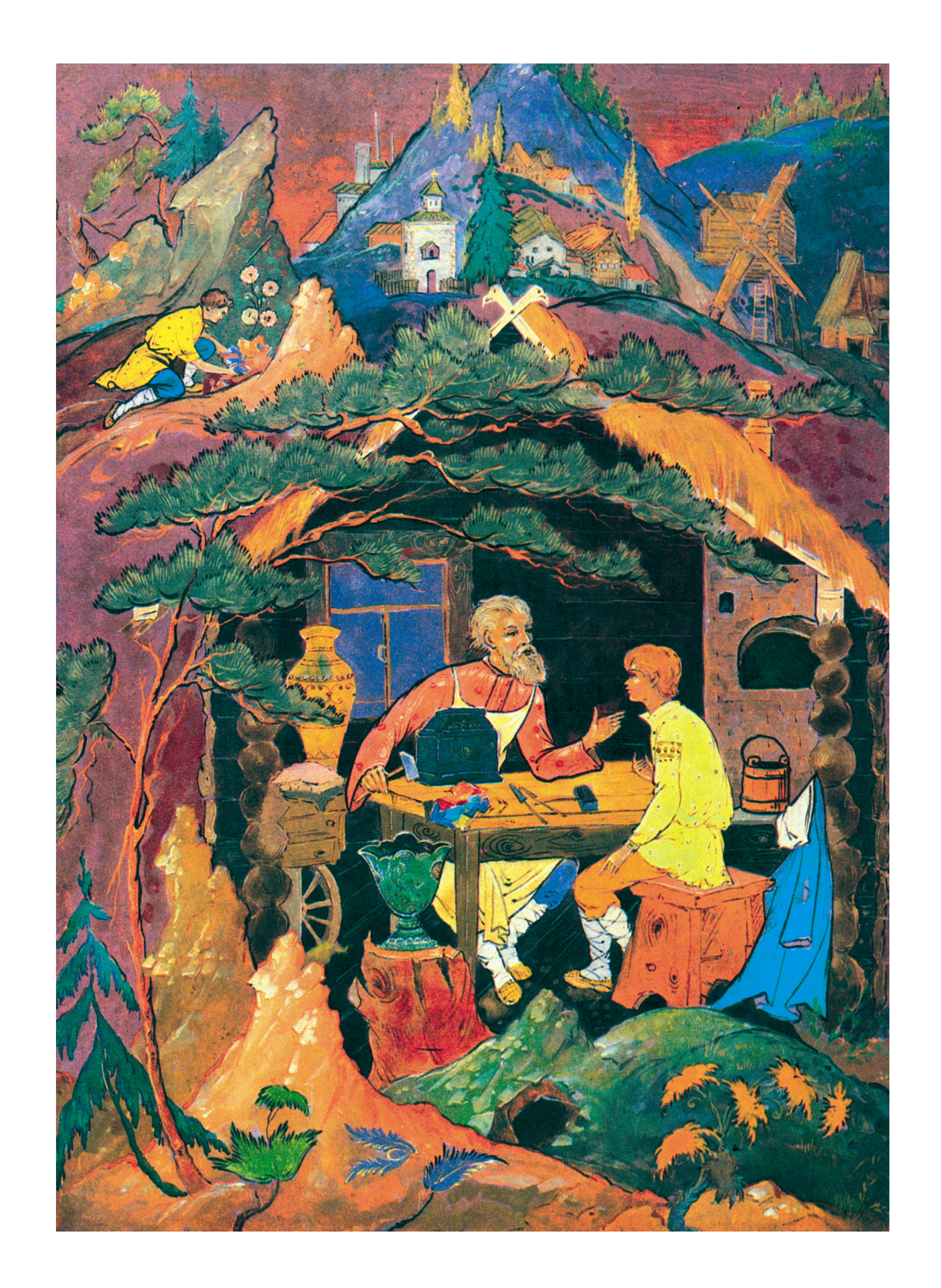
فقال العجوز في نفسه: يا له من صبي، لم أعلمه شيئاً بعد، وهو بدأ يعلم المعلم العجوز. لكم هي دقيقة رؤيته للعمل.

ثم ذهب بهدوء إلى الخزانة وأخرج منها وسادة ومعطفاً كبيراً، ووضع الوسادة تحت رأس الصبي وغطاه بالمعطف. وقال بحنان: نم أيها الذكي.

ولم توقظ هذه الحركة دانيال بل نام على جنبه الآخر، وتغطى بالمعطف وشعر بالدفء.

لم يرزق العجوز بأولاد، فشعر أن دانيال أصبح قريباً من قلبه، فوقف يتأمل الصبي النائم . وصار اهتمامه بأن يعيد الصحة إلى جسم الصبي، ويخلصه من نحفه ومرضه. وقال لنفسه: إن صحته لا تناسب مهنتنا، فالغبار سام ويمكن أن يقتله بسهولة. فلأجعله يرتاح أولاً، وبعد أن يستعيد صحته أبدأ بتعليمه، ولا شك أن تعليمه سيأتي بثماره.

وفي اليوم التالي قال العجوز لدانيال: ستساعدني في البداية في أعمال المنزل، فهذا هو النظام لدي. هل فهمت؟ في البداية اذهب واقطف الثمار لنصنع منها حشواً للفطائر، واحرص على ألا تبتعد كثيراً، واقطف ما استطعت، وخذ معك خبزاً لأن الشهية تزداد في الغابة، ومر على العجوز ماريا، فقد طلبت منها أن تقلي لك قليلاً من البيض وتصب لك الحليب. هل فهمت؟



وفي اليوم التالي عاد وقال له ثانية: اذهب وأحضر لي عصفورين غريدين ، وأحضرهما قبل المساء. هل فهمت؟

وعندما أحضر دانيال العصفورين، قال له العجوز: جيد ولكن ليس كثيراً، اذهب وأحضر غيرهما.

واستمر الوضع على هذه الحال، وكان العجوز ميخائيل يعطي لدانيال عملاً كل يوم، وكل الأعمال كانت سهلة .

وعندما تساقط الثلج أمر العجوز دانيال بأن يذهب مع جارهما إلى الغابة لجلب الحطب، وكانت مهمته تنحصر بركوب الحصان في طريق الذهاب وقيادة العربة، والسير خلف العربة في طريق العودة، فكان يقوم بهذه الأعمال ثم يعود إلى البيت ويتناول طعامه وينام.

وأعد له العجوز ملابس شتوية كاملة من حذاء شتوي وملابس وقفازات ومعطف وقبعة، فقد كان العجوز رجلاً ميسوراً، ورغم أنه كان من العبيد إلا أنه كان يعمل أعمالاً إضافية ويكسب مالاً جيداً، وقد أحب دانيال حباً شديداً، وكأنه كان ابناً له، فلم يبخل عليه بشيء، ولكنه لم يسمح له بالاقتراب من العمل قبل أن تتحسن صحته.

وبدأ دانيال يتحسن جيداً عند العجوز، وتعلق بالعجوز كثيراً، وفهم أن العجوز لأول مرة في حياته يعتني بصبي في بيته. وبعد أن ذهب الشتاء، صارت حياة دانيال رغيدة وممتعة، فكان يذهب للسباحة في البركة، ويتنزه في الغابة، ولكنه كان ينظر بين الحين والآخر إلى العمل، وما إن يعود إلى البيت حتى يفتح الأحاديث مع العجوز، فيروي للعجوز ما حدث معه، ثم يسأله عما يعمله وما الغاية وكيف ولماذا، فيشرح له العجوز ويريه عملياً. وكان دانيال يحفظ كل شيء جيداً، وبدأ يطلب من العجوز:"دعني أجرب أنا"، فيسمح له العجوز بالعمل ويصحح له أخطاءه وينصحه بالطريقة الأفضل.

ومرة شاهد المشرف دانيال يسبح في البركة. فسأل مساعديه: لمن هذا الصبي؟

صار لي عدة أيام أراه يلعب في البركة؟ ويذهب للصيد والنزهة في أيام العمل، ولم يعد صغيراً، فأحد ما يخبئه عن العمل.

وجاء المساعدون بالمعلومات إلى المشرف فلم يصدق أذنيه، وأمر قائلاً: هيا اجلبوا لي هذا الصبي وسأعرف الحقيقة بنفسي.

فأحضر المساعدون دانيال، وسأله المشرف: لمن أنت؟

فأجاب دانيال: إنني تلميذ عند الحرفي العجوز الذي يعمل على الحجر الأخضر.

فأمسكه المشرف من أذنه وقال: وهل هذه هي الطريقة التي تدرس بها... وشده من أذنه وأخذه إلى العجوز.

فرأى العجوز أن الأمر ليس على ما يرام وأخذ يدافع عن دانيال فقال: أنا الذي أرسلته لاصطياد السمك، لأنني أشتاق كثيراً لأكل السمك، ولأن صحتي سيئة فلا أستطيع تناول طعام آخر، ولهذا أمرت الصبي باصطياد السمك.

فلم يصدق المشرف، وأدرك أن دانيال قد تغير واسترجع صحته، ويرتدي ثياباً نظيفة. فبدأ يجرب دانيال وقال: هيا أرني ما الذي علمك إياه المعلم العجوز؟

فارتدى دانيال المئزر واقترب من الآلة وبدأ يشرح ويوضح للمشرف. وكل ما يسأله المشرف يجيب عليه. فشرح له كيف يعالج الحجر وكيف ينشره وكيف يلصقه وكيف يزرع فيه النحاس وكيف يضع فيه الخشب، وبقي المشرف يستجوب دانيال وأخيراً قال للعجوز: أرى أن هذا الصبي مناسب للعمل تماماً.

لا أشكو منه... رد العجوز.

حسناً إنك لا تشكو ولكنك تدلله، وقد أعطيناك إياه لتعلمه الحرفة، بينما هو يقضي وقته في البركة يصطاد. فاحرص على ألا أعاقبك، لأنك لن تنسى عقابي حتى تموت، ولن يبقى الصبي بلا عقاب أيضاً.

ثم غادر المشرف بعد أن نطق بتهديده، بينما قال العجوز مندهشاً: متى تعلمت كل ذلك يا دانيال؟ فأنا لم أعلمك شيئاً بعد.

هل نسيت أنك كنت تشرح لي كل ما أسألك عنه وأنا كنت أحفظ كل ذلك.

فسالت الدموع من عيني العجوز لشدة فرحه بما سمعه. وقال: يا بني .. يا حبيبي... سوف أعلمك كل ما أعرفه... ولن أخبئ عنك شيئاً.... ولكن منذ الحين لم يعد عند دانيال وقت فراغ للمرح واللعب.

فقد أرسل المشرف وراءه في اليوم التالي وصار يعطيه كمية محددة من العمل اليومي. في البداية كان العمل بسيطاً، كأن يصنع صناديق نسائية صغيرة للمجوهرات ثم الشمعدانات ثم مختلف أنواع الزينة والمجوهرات، ثم النقش والنحت، ومن ثم الأوراق والأزهار المختلفة.

فعمل حرفيي الحجر الأخضر عمل دقيق للغاية ، إذ يبدو أن المنتج بسيط ولكنه يستحوذ على وقت طويل لإنهائه. وهكذا كبر دانيال وهو يعمل في هذه الحرفة.

وعندما نحت أسوارة على شكل أفعى من الحجر، اعترف به الجميع كحرفي حقيقي.

وكتب المشرف للإقطاعي قائلاً: "لقد ظهر لدينا حرفي جديد يعمل في الحجر الأخضر يدعى دانيال، وهو يعمل جيداً، ولكنه ما زال شاباً صغيراً، فهل تأمرني بإبقائه يعمل كمية نحددها نحن من العمل، أو نجعله كالعجوز ميخائيل يحصل مقابل إنتاجه؟".

ولم يكن دانيال يعمل بهدوء بل عمل بسرعة ومهارة، فكان المشرف يعطيه عملاً ويحدد خمسة أيام لإنهاء العمل، فيعترض العجوز بأن خمسة أيام غير كافية، ويقول: هذا غير ممكن، فعمل كهذا يتطلب نصف شهر، والفتى ما يزال تلميذاً، فإن استعجل أتلف الحجر.

فيتناقشان فترة ثم يقبل المشرف ويزيد عدد الأيام قليلاً، فيعمل دانيال دون

عجلة وبارتياح. واستطاع دانيال أن يتعلم في وقت فراغه الكتابة والقراءة، وكان العجوز يشجعه على ذلك، فقد كان يتقن الكتابة والقراءة قليلاً.

وكان العجوز أحياناً يحاول أن يخفف العبء عن دانيال فيقوم ببعض مهامه التي يعطيها له المشرف، ولكن دانيال لم يكن يقبل ذلك وكان يقول: لا .. لا يا جدي، فليس من مهامك أن تقوم بعمل عني، انظر إلى لحيتك فقد أصبحت خضراء من غبار الحجر الأخضر، وصحتك ضعيفة، وأنا لن يضرني العمل بشيء.

وكان دانيال قد استرجع صحته تماماً حتى ذلك الحين وصار طويل القامة جميل الوجه وشعره أجعد جميلاً وطبعه مرحاً، وكانت الفتيات كلهن تستلطفنه، وصار العجوز يفتح لدانيال موضوع الزواج، ولكن دانيال كان يرفض ويقول: لا .. لم يحن الوقت بعد، فعندما أصبح حرفياً حقيقياً نتحدث بالموضوع.

وأمر الإقطاعي مشرفه بأن يأمر دانيال تلميذ ميخائيل بأن يصنع له آنية لمنزله، وبعدها سيرى إن كان سيحوله إلى الإنتاج الحر أو يبقيه على المقدار اليومي من العمل. وكتب للمشرف يقول: احرص على ألا يقوم العجوز بالعمل بدلاً عن تلميذه. فإن لم تنتبه لذلك سأعاقبك أنت".

استلم المشرف الرسالة، واستدعى دانيال وقال: سوف تعمل لدي هنا، وسيضعون لك آلة وأجلب لك الكمية التي تحتاجها من الحجر.

فعرف العجوز بالأمر وحزن كثيراً واستغرب: "لم ذلك؟"، فذهب إلى المشرف يستفسر، فصاح المشرف في وجهه قائلاً: "هذا ليس من شأنك".

وهكذا ذهب دانيال للعمل في المكان الجديد، فأوصاه العجوز قائلاً: احرص يا دانيال ألا تسرع وتكشف نفسك وقدراتك.

فحاول دانيال أن يكون حريصاً في البداية، فكان يقيس الحجر طويلاً ويعالجه ببطء، ولكنه شعر بالملل في النهاية، فسواء عمل أو لا فإن الفترة التي سيقضيها عند

المشرف هي نفسها، فعمل دانيال من شدة الملل بأقصى سرعته، فصنع الآنية الأولى بسرعة مدهشة. فنظر المشرف وقال: اصنع واحدة أخرى.

فصنع دانيال آنية أخرى. وأمره المشرف بصنع الثالثة، فقال له المشرف: لن تخدعني بعد اليوم، فقد اكتشفت كذبكما أنت والعجوز. فقد أمرك الإقطاعي بصنع آنية واحدة خلال هذه الفترة بينما أنت صنعت ثلاث أوان. وبت أعرف قدرتك الآن، ولن تستطيع خداعي ثانية، وسوف أعاقب ذلك العجوز الخبيث.

فكتب للإقطاعي رسالة شرح فيها الأمر وأرسل إليه الأواني الثلاث، ولكن الإقطاعي كان في مزاج جيد وكان غير راضٍ عن المشرف، فقلب النتيجة كلها بالعكس.

فحدد كمية العمل الخاصة بدانيال بسيطة جداً، وأمر بإبقائه عند العجوز، لربما يبتكران شيئاً جديداً سوية، وأرسل مع الرسالة صورة مرسومة لآنية مزينة بالنقوش، وكتب الإقطاعي في أسفل الصورة: دعه يعمل عليها قدر ما يحتاج ولو استمر العمل خمس سنوات ولكنني أريدها تماماً كهذه.

فاضطر المشرف أن يرضخ ويتراجع عن كلمته وأعلن أن الإقطاعي أمر في رسالته بإعادة دانيال إلى العجوز وسلمه صورة الآنية.

فرح دانيال والعجوز وسار عملهما بشكل أفضل. وبعد فترة باشر دانيال العمل في صنع تلك الآنية، وكان فيها الكثير من النقوش الدقيقة والماهرة، فإن أخطأت مرة أتلفت القطعة وتضطر للبدء من البداية، لكن عين دانيال كانت دقيقة ويده شجاعة وقوته كافية، فسار العمل جيداً.

ولكن ما لم يعجبه في صورة هذه الآنية أن نقوشها صعبة الصنع وجمالها قليل، وكان يشكو للعجوز هذا الأمر، فيجيبه العجوز قائلاً: وما لك أنت؟ هم صمموا هذا الرسم لغاية في نفسهم، وذلك يعني أنهم بحاجته. فقد صنعت الكثير من التحف والأشياء ولا أعرف غايتها .

فحاول دانيال أن يتحدث مع المشرف، فعلى صراخ المشرف وقال: هل جننت؟ لقد

دفع الإقطاعي مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذه الصورة. وربما يكون راسمها هو الرسام الأول في المدينة، فكيف تتجرأ على مناقشة الصورة.

ثم تذكر المشرف أن الإقطاعي قال له:"ربما يبتكران سوية شيئا أفضل"، وقال: اسمع.. اصنع هذه الآنية كما طلبها الإقطاعي، ثم اصنع واحدة أخرى كما تريدها أنت، ولن أمنعك عن فعل ذلك، فالحجر الأخضر كثير لدينا، وسأعطيك الحجر الذي تطلبه.

وهنا غرق دانيال في التفكير، وتذكر المقولة الشعبية التي تقول إن انتقاد عمل الغير أمر سهل جداً، بينما القيام بالعمل صعب، وبقي دانيال يتقلب عدة ليال في فراشه وهو يفكر بآنيته. وجلس يكمل صناعة آنية الإقطاعي، بينما في عقله يفكر بآنيته. فيقلب في مخيلته أي وردة ينحت عليها وكيف هو شكل الأوراق، فغرق في التفكير واختفى مرحه، فلاحظ العجوز ذلك وسأله: هل أنت مريض يا دانيال؟ لا ترهق نفسك كثيراً مع هذه الآنية. لماذا تسرع؟ اذهب للنزهة قليلاً إلى الغابة، وأنا يمكنني أن أتابع العمل هنا.

ومنذ ذلك الحين صار دانيال يذهب إلى الغابة يومياً، وكانت الفترة فترة حصاد، والأعشاب كلها متوفرة والأزهار مزهرة، وكان دانيال يقف ويتأمل الأوراق والأزهار والأشجار. وكان الناس يعملون في تلك الفترة في الحقول، فيسألون دانيال إن كان قد أضاع شيئاً؟ فكان يبتسم ابتسامة حزينة ويجيب: أضعت ولم أضع ولا أستطيع العثور عليه..... فكان البعض يقول: إن حال الفتى سيئة.

وكان ما إن يأتي إلى الكوخ حتى يقف خلف الآلة حتى الصباح، وما إن تشرق الشمس حتى يسرع ثانية إلى الغابة إلى حقول ومزارع الحصاد. وصار يجلب أنواعاً من الأوراق والأزهار إلى الكوخ، فازداد نحفاً وهماً وقلقاً، وفقد شجاعة يديه.

فأصاب القلق العجوز واستفسر عن سبب كل ذلك، فأجابه دانيال: إن الآنية لا تتركني دقيقة لأرتاح، فأنا أفكر بها ليلَ نهار، ورغبتي الشديدة في أن أصنعها بحيث يكتسب الحجر كل قوته.

فأخذ العجوز يثنيه عن قراره، ويقول: ما الداعي لتجعلها بهذا الإتقان؟ فنحن نأكل ونشرب حتى الشبع، فليتسلَ السادة كيفما شاءوا، فإن ابتكروا نقشاً نحتناه لهم، فلم نعرض عليهم أفكارنا؟ فذلك سيلبسنا قيداً جديداً.

ولكن دانيال أصر على رأيه وقال: إنني لا أبذل جهدي من أجل السيد، بل لا أستطيع أن أخرج تلك الآنية من رأسي. فأنت ترى كم هو جيد الحجر الذي لدينا في حين أننا لا نصنع منه أفضل ما يمكن، وقد رغبت بشدة أن أصنع آنية يكتسب فيها الحجر كل قوته، لأنني أردت أن أراها بنفسي وأجعل الناس يرونها.

ثم عاد دانيال إلى الآلة وعاد لصنع الآنية وفق مخطط الإقطاعي، وهو يسخر من هذا الرسم ويقول: يا لهذا الشريط الحجري ذي الثقوب...

ثم أبعد هذه الآنية بعيداً، وأخذ يعمل على آنيته، وهو يقف خلف الآلة دون راحة. وقال للعجوز: سوف أصنع آنيتي وفق صورة الوردة السحرية.

فأخذ العجوز يثنيه عن رأيه، وكان دانيال يرفض الاستماع إليه في البداية، ومن ثم وبعد مرور ثلاثة أيام وبعد أن أخطأ قليلاً في عمله، قال للعجوز: حسناً سوف أنهي آنية الإقطاعي أولاً، ثم أباشر في صنع آنيتي. ولكنك لا تثنيني بعدها... فلا أستطيع التوقف عن التفكير بها وتخيلها.

فرد العجوز: حسناً لن أزعجك عندها... وفكر بينه وبين نفسه: سوف يتعب من العمل وينسى نيته، علي بتزويجه، فتتبخر التفاهات من رأسه ما إن تصبح لديه أسرة.

وانهمك دانيال في صنع الآنية، وكانت تتطلب عملاً كثيراً ولا تكفيها سنة واحدة، ولكنه كان يعمل بجد، ولا يتحدث حول الوردة السحرية.

وبدأ العجوز يفتح أمامه موضوع الزواج ويقول: انظر إلى كاترينا أليست عروساً جميلة؟ وهي فتاة جيدة كاملة في أوصافها وأخلاقها.



وكان العجوز قد لاحظ منذ فترة أن دانيال معجب بهذه الفتاة، وهي أيضاً كانت تبادله الإعجاب، ففتح العجوز الحديث وكأنه صدفة، ولكن دانيال أصر على رأيه وقال: انتظر حتى أنتهي من الآنية، فقد مللت منها، حتى أصبحت راغباً بكسرها، فكيف تحدثني عن الزواج وأنا بهذه الحالة. لقد اتفقت مع كاترينا، ووعدت أن تنتظرني.

وأخيراً انتهى دانيال من إنجاز الآنية التي طلبها الإقطاعي ووفق المخطط الذي رسمه الإقطاعي. وقرر دانيال والعجوز أن يقيما حفلة صغيرة في الكوخ قبل أن يخبرا المشرف.

فحضرت كاترينا العروس مع والديها، وبعض من صناع الحجر الأخضر. فنظرت كاترينا إلى الآنية وقالت: كيف استطعت أن تنحت نحتاً كهذا من الحجر دون أن تضر بحوافه، كم هذا العمل دقيق ونظيف.

واستحسن الحرفيون العمل أيضاً وقالوا: إن الآنية تماماً كما في الصورة، كما أنك أنجزتها في وقت سريع، فإذا تابعت العمل بهذه الطريقة فلن يكون بمقدور أي منا اللحاق بك.

فاستمع دانيال إليهم وقال: هذا ما يزعجني في الأمر، فكل شيء نظيف ودقيق، والنقش دقيق والنحت صحيح، كل شيء حسب الصورة، ولكن أين الجمال في هذه الآنية؟ انظروا إلى أصغر وأبسط وردة، فتشعر أنها تفرح قلبك، بينما هذه الآنية من ستفرح؟ فأي شخص سينظر إليها سيعبر بنفس الطريقة التي عبرت بها عزيزتي كاترينا، فقد تأملتها ومدحت عين ويد الحرفي الذي صنعها، ودهشت لصبره الطويل بحيث لم يكسر أي طرف من الآنية.

فضحك الحرفيون وقالوا: نعم وحيث كسرت أو أخطأت فبمقدورك أن تلصق الحجر وتستر العيب، ولن يكتشف ذلك أحد.

صحيح.. ولكن أين جمال الحجر؟ فهذه الصورة أين الجمال فيها. إننا نتلف الحجر بهذه الطريقة، وهذا الحجر من الصنف الأول.

وزاد انزعاج دانيال ويبدو أنه شرب قليلاً من النبيذ، فكرر الحرفيون على مسمعه ما قاله له العجوز ميخائيل مراراً: إن الحجر حجر ولا يمكننا أن نفعل به شيئاً غير نحته ونقشه وتقطيعه.

وصادف حضور عجوز كهل بين المجموعة، وهو الذي علم في زمانه العجوز ميخائيل وأصدقاءه الحرفيين، والجميع كان يدعوه بالجد.

وكان عجوزاً هشاً، ولكنه فهم الحديث وقال لدانيال: يا ولدي العزيز تخلص من هذه الأفكار ولا تمش في هذا الطريق ، وإلا وقعت في أسر سيدة الجبل النحاسي وأصبحت من صناعها...

أي صناع يا جدي؟

هناك صناع يعيشون في الجبل لم يرهم أحد... وكل ما تحتاجه السيدة يفعلونه، وقد صدف لي مرة أن رأيت عملهم وكان مختلفاً عن عملنا.

فاشتد فضول الجميع لسماع القصة، فأخذوا يسألونه عن المنحوتات التي رآها. فقال: قد رأيت أفعى كالتي تنحتونها أسوارة. وكيف هي؟

إن هذا العمل كان مختلفاً عن أي عمل محلي، وبمقدور أي حرفي أن يرى الفرق مباشرة وسيقول إنه ليس من العمل المحلي. فالأفعى التي ينحتها الحرفيون المحليون تبدو حجرية، بينما الأفعى التي ينحتها صناع سيدة الجبل تبدو حية، فعلى ظهرها خيط أسود ولها عينان خضراوان...

وما إن سمع دانيال قصة الوردة الحجرية، حتى صار يسأل عنها الجد العجوز، فأجابه الجد قائلاً: لا أعرف يا بني، سمعت أنه توجد وردة كهذه، ولا يجوز أن يراها أحد من جماعتنا من الحرفيين، فالذي يراها يصبح ضوء النهار عاجزاً عن إسعاده.

فرد دانيال: يا ليتني أرى هذه الوردة.

فازداد قلق كاترينا وقالت: لا.. لا.. يا دانيال، هل مللت من ضوء النهار؟... وأخذت تبكي.

فأدرك العجوز والحرفيون الآخرون الموقف، وصاروا يسخرون من الجد العجوز، قائلين: لا شك أنك فقدت عقلك يا جدنا، وصرت تحكي لنا الحكايات. لماذا تحرف الشاب عن الطريق القويم.

فانزعج الجد وضرب الطاولة بكفه وصاح: هذه الوردة موجودة، والشاب يقول الحقيقة، فنحن لا نعالج الحجر بطريقة صحيحة، ففي تلك الوردة الجمال كله مخفي. فضحك الصناع وقالوا: لا شك أنك شربت زيادة من النبيذ أيها الجد.

فأصر الجد على أقواله: إن الوردة الحجرية موجودة.

ثم تفرق الضيوف، ولم يبرح هذا الحديث تفكير دانيال، فصار يعود مراراً إلى الغابة ويتنزه بجانب الوردة السحرية، وقد نسي العرس تماماً. فصار العجوز ميخائيل يذكره بواجبه ويقول: لماذا تجعل الفتاة سخرية في المنطقة؟ كم عاماً صار لها تنتظرك وهي عروسك؟ وقريباً سيبدأ الجميع بالسخرية منها.

في حين ظل دانيال يردد قوله: انتظر قليلاً، حتى أجد الحجر المناسب.

وصار من عادته الذهاب إلى المنجم الحجري، وكان كلما نزل إلى المنجم يدور في دهاليز الجبل كلها، ثم ينتقي الحجارة في الأعلى.

ومرة أمسك بحجر وقلبه في يده، وقال: لا .. ليس هذا ... وما إن قال ذلك حتى سمع صوتاً يقول: ابحث في مكان آخر... عند قمة الأفعى.

فنظر دانيال حوله ولم يجد أحداً، وتساءل عمن كان ذلك؟ وهل يعقل أن يمزح معه أحد هنا، ولكن ليس في المكان أي زاوية للاختباء، فنظر حوله ثانية ثم عاد إلى الكوخ، ولكنه سمع صوتاً خلفه يقول: هل سمعتني أيها الحرفي دانيال؟ أقول لك ابحث عند قمة الأفعى.

فالتفت دانيال خلفه، فرأى امرأة كالضباب مرئية بصعوبة، ثم اختفى كل شيء، ففكر دانيال في نفسه:"ما هذه المزحة.. أيعقل أن تكون هي نفسها سيدة الجبل النحاسي؟ وماذا سيحدث إن ذهبت إلى قمة الأفعى؟".



وكان دانيال يعرف قمة الأفعى جيداً، فقد كانت قريبة من منطقة المناجم، وهي غير موجودة الآن فقد حفروها كلها، بينما في السابق كانوا يستخرجون الحجر من أعلاها.

وفي اليوم التالي توجه دانيال إلى مكان القمة، وكانت طلعة الجبل منحدرة رغم صغرها. و كانت من إحدى جهاتها وكأنها قطعت قطعاً، والمنظر من هنا كان مثالياً، فكل طبقات الجبل مرئية.

فاقترب دانيال من منطقة الشق ورأى فيه حجراً أخضرَ كبيراً لا يمكنك حمله باليدين، ومصنوع على شكل حشائش. فصار دانيال يتفحص ما وجده، وكان كل شيء فيه كما يريده، فاللون في الأسفل أغمق، والعروق في أماكنها المطلوبة. فرح دانيال وأسرع لإحضار الفرس، وعندما جلب الحجر إلى المنزل، قال للعجوز ميخائيل: انظر إلى هذا الحجر يا جدي. فالآن سأنجز ما أردت ثم أتزوج فوراً. لا شك أن كاترينا طال انتظارها، وأنا أيضاً لست مرتاحاً، فهذا العمل وحده كان يعيقني، وسأحاول إنجازه سريعاً.

وبدأ دانيال ينحت ذلك الحجر، وغرق في العمل ليل نهار، وبقي العجوز صامتاً يأمل أن يهدأ دانيال عندما يمل من العمل، وسار العمل سريعاً، فأنجز أسفل الحجر، فظهر تماماً كالوردة السحرية، ثم نحت الأوراق العريضة، وكل ذلك تم بأفضل ما يمكن، وكان العجوز يقول إنها وردة حية ترغب بلمسها، وعندما وصل إلى أعلى النبتة وجاء دور الزهرة رأى أن ساق النبتة الحقيقية رفيعة جداً والأوراق حولها ناعمة ودقيقة والزهرة فوقها كبيرة، وعليه أن يصنعها تماماً كما هي عليه في الحقيقة وإلا لن تكون شبيهة بالنبتة الحقيقية، فجفاه النوم تماماً، وبعد انتهى من النحت جلس يفكر بدقائق الأمور التي عليه تصحيحها، وكان العجوز ميخائيل والحرفيون الآخرون يستغربون ويتساءلون:"ماذا يريد أكثر من ذلك إنها كاملة؟".

وظنوا أن الشاب مريض ويجب علاجه، فسمعت كاترينا بحديث الناس وأخذت تبكي، فأعادت دموعها إلى دانيال رشده، وقال:

حسناً.. سأتوقف هنا. يبدو أنني لن أرتفع فوق هذا المستوى ولن أعرف قوة الحجر...

وبدأ يعجل بإقامة العرس، ولمَ العجلة طالما أن العروس قد جهزت كل شيء منذ زمن؟ فحددوا يوم العرس، وعاد الفرح إلى دانيال، فأخبر المشرف بالآنية التي على شكل الوردة السحرية، فحضر المشرف وفوجئ بجمال الآنية وأراد أخذها مباشرة إلى الإقطاعي، ولكن دانيال قال له: انتظر هناك إضافة صغيرة سأجريها.

وكان الوقت فصل خريف، وصادف موعد العرس قريباً من عيد الأفعى. فقال أحد الأشخاص أنه قريباً من عيد الأفعى سيجتمع الجميع في مكان واحد.

فانتبه دانيال لهذا الكلام، وتذكر ثانية الأحاديث التي دارت حول الوردة من الحجر الأخضر، فشعر برغبة شديدة تشده وقال في نفسه: "ليتني أذهب آخر مرة إلى قمة الأفعى، فربما أعرف شيئاً جديداً هناك".

وتذكر الحجر وقال:"لقد بدا وكأنه وضع قصداً هناك، وسمعت صوتاً في المنجم ذكر لي قمة الأفعى".

وهكذا ذهب دانيال باتجاه قمة الأفعى، وبدأت الأرض تبرد، فاقترب دانيال من الشق الجبلي، حيث أخذ الحجر، فنظر ورأى في ذلك المكان حفرة كبيرة وكأنما تم أخذ حجر منها حديثاً، فلم يفكر دانيال بالشخص الذي كسر الحجر واستخرجه، وقال لنفسه: "دعني أجلس قليلاً وأرتاح، فالجو أدفأ هنا".

ورأى عند الجدار حجراً رمادياً يشبه الكرسي، فجلس دانيال عليه، وغرق في التفكير وهو ينظر إلى الأرض، ولا تبرح تلك الوردة مخيلته". وفجأة انتشر الدفء وكأن الصيف عاد، فرفع دانيال رأسه، ورأى في الجهة المقابلة عند الجدار سيدة الجبل النحاسي جالسة.

فعرفها دانيال فوراً من جمالها وثوبها من الحجر الأخضر. ولكنه فكر في نفسه:"ربما أتخيل كل ذلك، وفي الحقيقة لا أحد غيري هنا".

فجلس صامتاً ينظر إلى مكان جلوس السيدة، وكأنما لا يرى شيئاً، وبقيت هي أيضاً صامتة، وكأنما جلست تفكر. ثم سألته: حسناً يا معلم دانيال، لم تنجح آنيتك التي على شكل الوردة السحرية، أليس كذلك؟

نعم لم تنجح... أجاب دانيال.

لا تيأس، حاول أن تصنع واحدة أخرى، وسيكون لديك الحجر الذي تريد.

لا... أجاب دانيال – لا أستطيع أكثر، فقد تعبت كثيراً. اسمحي لي برؤية الوردة الحجرية.

إن هذا الأمر بسيط جداً، ولكنك ستندم عليه كثيراً.

لن تتركيني أغادر الجبل أليس كذلك؟

بل العكس تماماً، ولكنك ستعود بنفسك، فالآخرون عادوا بأنفسهم إلي.

دعيني أرها أرجوك. فبقيت تثنيه بعض الوقت قائلة: ربما تحاول قليلاً بعد، فقد آواك العجوز وأشفق عليك والآن جاء دورك لتشفق عليه، وفتاتك تحبك حباً كبيراً، بينما أنت لا ترى كل ذلك.

أعرف كل ذلك... صاح دانيال – ولكنني لا أستطيع العيش بدون رؤية الوردة، فدعيني أراها.

طالما الأمر كذلك فلنذهب يا معلم دانيال إلى حديقتي.

قالت ذلك ونهضت، فعصفت الريح واهتزت الأرض، ونظر دانيال حوله ولم ير أي جدران، بل أحاطت به أشجار عالية حجرية ومرمرية ومن الأحجار الكريمة الأخرى، ولكنها تبدو كالأحجار الحية، ولها أوراق وأغصان، تهتز مع الريح، والأعشاب فوق الأرض حجرية ومن مختلف الأحجار والألوان، والشمس غير مرئية، بينما نورها موجود، وكأنك قبل الغروب، وبين الأشجار تزحف أفاعٍ صغيرة ذهبية اللون يصدر عنها الضوء.

فقادت السيدة دانيال إلى مرج كبير، وكانت الأرض تشبه الطين العادي، والأحراش فوقها سوداء كالمخمل، وعلقت فوقها أجراس كبيرة من الحجر الأخضر وداخل كل حجر نجمة، وتلمع النحلات النارية فوق الأزهار، وترن النجوم رنيناً هادئاً وكأنها تغني.

حسناً يا معلم دانيال، هل رأيت كل هذا؟... سألت السيدة.

لن تجدي حجراً لتصنعيه بهذا الشكل... أجاب دانيال.

لو أنك ابتكرت ذلك بنفسك لأعطيتك الحجر، بينما الآن لن أعطيك.

وعاد دانيال بلمح البصر إلى الحفرة التي كان جالساً فيها، وعاد الجو الخريفي برياحه وضجيجه.

عاد دانيال إلى الكوخ، وكان في نفس اليوم تقام سهرة عند عروسه، وحاول دانيال أن يبدو سعيداً في البداية، وغنى ورقص، ثم غمره الحزن والغم.

فخافت العروس وقالت: ما بك يا دانيال؟ وكأنك في جنازة.

فقال لها: أشعر بألم شديد في رأسي، وعيناي لا تريان إلا اللون الأسود الممزوج بالأخضر والأحمر، ولا أرى النور.

وعند هذا الحد انتهت السهرة، فذهبت العروس وصديقاتها وفق العادات الشعبية لإيصال العريس إلى منزله، وكانت المنازل قريبة من بعضها. فقالت كاترينا: لنذهب يا صديقاتي بطريق دائري، فنقطع شارعنا حتى نهايته، ثم نعود من شارع آخر. وفكرت في نفسها: "ستلفح الريح دانيال فربما يرتاح".

وكانت صديقاتها سعيدات للغاية، وقلن: نعم علينا بتوديعه، فمنزله قريب جداً، ولم نغن له أغنية طويلة.

وكانت الليلة هادئة والثلج يتساقط، والوقت مناسباً للنزهة تماماً. فساروا جميعاً، العريس والعروس في المقدمة، وصديقات العروس خلفهما وخلف الجميع

الشبان العزاب الذين حضروا السهرة. وغنت الفتيات أغنية الوداع، وكانت الأغنية طويلة وحزينة، فرأت كاترينا أنه لا داعي لهذه الأغنية وقالت: "إن دانيال حزين دون أن نغني له هذه الأغنية الحزينة".

وحاولت أن تسري الهم عن دانيال وتجعله يفكر بأمور أخرى، فاندمج بالحديث ومن ثم عاد إلى حزنه. وكانت صديقات كاترينا قد انتهين من الأغنية الحزينة وبدأن بالأغاني السعيدة، وهن يضحكن ويركضن ويرقصن، بينما دانيال حزين يسير خافضاً رأسه. ومهما حاولت كاترينا أن تفرحه لم تفلح في ذلك. وهكذا وصلوا إلى كوخ دانيال، وبدأت الصديقات والعزاب يتفرقون، وودع دانيال حبيبته حتى منزلها وعاد إلى الكوخ، ثم أشعل النار بهدوء، وأخرج الآنيتين إلى وسط الغرفة ووقف يتفحصهما. وفي نفس اللحظة أصابت العجوز ميخائيل نوبة سعال، فقد أصبح هرماً ومريضاً، فشعر دانيال وكأن سعال العجوز جرحه جرح السكين، وتذكر حياته التي عاشها كلها، فشعر بأسف شديد على العجوز.

فاستيقظ العجوز وسأل: ماذا ستفعل بالآنيتين؟

كنت أنظر إن آن الأوان لتسليمهما.

قد آن منذ زمن بعيد، فإنهما تحتلان مساحة عبثاً، ولن تصنع أفضل منهما.

فتحدثا قليلاً، ثم عاد العجوز إلى النوم. واستلقى دانيال ولكنه لم يستطع النوم، فتقلب من جانب إلى آخر، ثم نهض ثانية وأشعل النار، ونظر إلى الآنيتين، ثم اقترب من العجوز، ووقف قليلاً فوق رأسه وتنهد...

ثم أخذ المطرقة وكسر آنية الوردة السحرية، أما الآنية التي طلبها الإقطاعي فلم يمسها بسوء، ومنذ ذلك الحين لم ير أحد دانيال ولم يستطيعوا إيجاده.

فقال البعض إنه فقد عقله، وآخرون قالوا إنه مات في الغابة، وقال آخرون أن سيدة الجبل النحاسي جعلته واحداً من صناعها المهرة.

ولكن الواقع كان مختلفاً، وسنعرفه في القصة القادمة.



حرفي الجبل

بقيت كاترينا عروس دانيال بلا زواج، ومرت سنتان أو ثلاث منذ أن فقدت دانيال وفاتها قطار الزواج. فعشرون سنة في الماضي كانت تخرج الفتاة من سن الزواج، ومن النادر أن يخطب شاب فتاة في هذا العمر، بينما الرجال الذين ترملوا يتقدمون لخطبتها.

ولكن يبدو أن كاترينا كانت جميلة جداً وكان كل الشبان يطلبون ودها ويدها للزواج، ولكنها كانت ترفض وتقول: لقد وعدت دانيال بالزواج منه.

وكانوا يحاولون إقناعها ويقولون: وماذا يمكنك أن تفعلي، لقد وعدته ولكنك لم تتزوجيه، ولم يعد من فائدة لتذكر ذلك، فقد مات دانيال منذ زمن بعيد.

وكانت كاترينا تصر على قولها: لقد وعدت دانيال، لربما يعود يوماً ما.

فيكررون عليها: لقد مات دانيال وهذا مؤكد.

وهي تصر على رأيها: لم يره أحد ميتاً، وبالنسبة لي هو دائماً حي.

وعندما رأوا أنه لا فائدة من إقناعها تركوها في حالها، وسموها "خطيبة الميت". وحدث في تلك الفترة أن انتشر وباء قاتل في المنطقة، وتوفي والدا كاترينا، وكانت عائلتها كبيرة فلديها ثلاثة أخوة متزوجون وعدد من الأخوات المتزوجات، فتشاجر

الأخوة فيما بينهم على من سيحل مكان الأهل في رعاية كاترينا، فرأت كاترينا أن الشجار طال وقالت: سأذهب لأعيش في كوخ دانيال، فقد أصبح العجوز ميخائيل هرماً وعلي أن أعتني به.

فحاول أخوتها وأخواتها ثنيها عن قرارها وقالوا: لا يناسبك هذا يا أختاه، فالعجوز ميخائيل هرم، ولكن الناس ربما يتحدثون بالسوء عنك.

وماذا يهمني من ذلك؟... ردت كاترينا – فلست أنا من ستثير القلاقل، والعجوز ميخائيل ليس غريباً عني، فهو الذي تبنى دانيال، وسأناديه بأبي.

وهكذا ذهبت، ولم يصر أخوتها أكثر، وفكروا بينهم وبين نفسهم، واحد ينقص من العائلة يخف الضجيج والفوضى. أما العجوز ميخائيل فقد فرح كثيراً. وقال:

شكراً لك يا كاترينا أنك تذكرتني.

وهكذا صارا يعيشان سوية. وكان العجوز يعمل خلف آلته، وكاترينا تدير شؤون المنزل والحقل وتحضر الطعام، وكانت كاترينا فتاة نشيطة تنهي أعمالها سريعاً ثم تجلس لتحيك أو تخيط. وسارت الأمور في البداية سيراً جيداً، ولكن صحة العجوز بدأت تتراجع سريعاً، فكان يعمل يوماً وينام يومين.

وصارت كاترينا تفكر كيف سيتدبران أمورهما فالخياطة والحياكة لا تعيل، وهي لا تعرف عملاً آخر. فقالت للعجوز: يا أبي هلا علمتني شيئاً أبسط مما أعرفه.

فضحك العجوز وقال: ماذا تقولين؟ وهل هذا عمل تمارسه النساء أن تنحت الحجر الأخضر. فلم أسمع بذلك أبداً.

ولكنها بدأت تدقق النظر في عمل العجوز، وتساعده حيثما تستطيع، فصار العجوز يعلمها باقي المهارات من الأمور البسيطة. ثم توفي العجوز وبقيت كاترينا وحيدة، فصار أخوتها وأخواتها يقنعونها: الآن عليك أن تتزوجي، فكيف ستعيشين وحيدة؟

فقاطعتهم كاترينا وقالت: لا تشغلوا فكركم بي. فأنا لست بحاجة لعريسكم.

سيعود دانيال بعد أن يتعلم في الجبال.

فاستغرب أخوتها وأخواتها وتساءلوا: هل أنت في عقلك يا كاترينا؟ لا يجوز أن تقولي ذلك، فقد مات الرجل منذ سنوات، فلماذا تنتظرينه. ثم كيف ستعيشين ومن أين ستصرفين؟

لا تقلقوا لهذا الأمر، أستطيع أن أتدبر أموري وحدي.

فظن الأخوة والأخوات أن العجوز ترك لكاترينا مالاً، وعادوا يكررون عليها: يا لك من حمقاء، فإذا كان لديك مال فأنت بحاجة لرجل ليحميك وإلا جاء اللصوص إلى منزلك لسرقة المال.

لن يحصل غير المكتوب لي يا أخوتي فلا تقلقوا.

فاستمر أخوتها في إقناعها فترة، ومنهم من أخذ يصيح ومنهن من أخذت تبكي، ولكن كاترينا ظلت على رأيها وقالت: أستطيع أن أبقى وحدي ولست بحاجة لعريسكم، فلدي عريس منذ زمن بعيد.

فغضب أخوتها منها وقالوا:

طالما أنك عنيدة فلا تطلبي مساعدتنا.

شكراً يا أخوتي وأخواتي الأحباء، لن أنسى اهتمامكم أبداً، ولكن أنتم لا تنسوني وزوروني إن مررتم بجانب المنزل.

فظنوا أنها تسخر منهم، فصفقوا الباب وذهبوا. وبقيت كاترينا وحيدة، فبكت قليلاً ثم قالت لنفسها: لا.. لن أضعف.

ثم جففت دموعها وبدأت تنظف الكوخ وترتبه، وبعد أن انتهت من التنظيف جلست خلف الآلة ورتبت الأشياء حولها وأبعدت الأشياء التي لا تحتاجها ثم جلست للعمل، وقالت:"فلأجرب أن أنحت حجراً واحداً". وعندما همت للقيام بالأمر لم تجد الحجر المناسب، فقد بقيت بقايا الآنية التي كسرها دانيال واحتفظت بها كاترينا

للذكرى، وكانت القطع في منديل. وكان عند العجوز حجر كثير طبعاً، ولكن العجوز بقي حتى نهاية أيامه يعالج الحجر الكبير، ولم تجد سوى الفتات التي كان يستخدمها لتصحيح الأخطاء، فقالت لنفسها: "علي الذهاب إلى المناجم والبحث هناك، عسى أن أجد الحجر المطلوب".

وكانت قد سمعت من دانيال ومن العجوز ميخائيل أنهما كانا يذهبان إلى قمة الأفعى ويأخذان الحجارة من هناك، فذهبت هي أيضاً إلى هناك.

وكانت منطقة المناجم تعج دائماً بالناس، فبعضهم يجمعون المعادن وآخرون ينقلونها، فنظروا إلى كاترينا باستغراب متسائلين إلى أين تذهب حاملة السلة، وكانت كاترينا تنزعج من النظرات الفضولية، فلم تبحث في هذا الجانب من الجبل، بل دارت من الجانب الآخر للجبل.

وكان في ذلك الجانب غابة جبلية، فسارت عبر الغابة إلى قمة الجبل وجلست هناك، فقد شعرت بالحزن لأنها تذكرت دانيال، فجلست فوق الحجر تبكي وهي وحيدة في الغابة وعندما سقطت دموعها على الأرض رأت رأس حجر أخضر يبرز بين التراب، فكيف السبيل إلى إخراجه طالما ليس معها أداة حادة؟ فحاولت كاترينا تحريكه بيدها، وتبين لها أن الحجر ليس مغروساً بقوة في الأرض. فوجدت عوداً خشبياً بجانبها وأخذت تحفر به الأرض حول الحجر، ثم حركته قليلاً واستطاعت إخراجه، ولم يكن الحجر كبيراً وكان بإمكانها حمله بسهولة، واستغربت كاترينا وقالت: إن هذا هو الحجر الذي كنت أبحث عنه، فتقطيعه سهل ولا يضيع منه شيء.

فجلبت الحجر إلى الكوخ وبدأت تنشره فوراً، وكان العمل بطيئاً، وما زال أمام كاترينا أداء الأعمال المنزلية، فقضت طوال اليوم في العمل ولم يبق لديها وقت لتحزن، ولكنها كلما جلست وراء الآلة تتذكر دانيال وتقول: يا ليته رأى الحرفي الجديد الذي جلس محله ومحل العجوز ميخائيل.

وظهر أشخاص من الناس السيئين الذين يحبون السخرية من الآخرين وإزعاجهم، فجاء ثلاثة شبان سكارى ودخلوا في بستان كاترينا، وأرادوا إخافتها،

وكانت كاترينا تعمل خلف آلة نحت الحجر فلم تسمعهم يمشون حول الكوخ، ولم تنتبه لوجود غرباء إلا عندما بدءوا يطرقون باب الكوخ ويصيحون: افتحي يا عروس الميت واستقبلي الضيوف الأحياء.

فصارت كاترينا تقنعهم بالحسنى في البداية وتقول: أرجوكم اذهبوا من هنا.

ولكنهم استمروا في طرق الباب محاولين خلعه، ففتحت كاترينا الباب حاملة الفأس في يدها وصاحت في وجههم: حسناً من يريد أن يموت أولاً؟

رأى الشبان أنها تحمل فأساً وقالوا: حسناً بلا مزاح.

فقالت لهم: عن أي مزاح تتكلمون، فأي واحد يتجاوز عتبة الباب أقتله.

ورغم أن الشبان كانوا سكارى إلا أنهم استطاعوا أن يدركوا أن الوضع خطير، فكاترينا كانت فتاة قوية وضخمة البنية وناضجة. فاعترضوا قليلاً ثم ذهبوا.

وصار الناس منذ ذلك الحين يسخرون من الشبان الثلاثة بأنهم هربوا ثلاثتهم من فتاة. فلم يعجبهم ذلك فاخترعوا قصة قالوا فيها أن الميت كان يقف وراء ظهر كاترينا.

وقال أحدهم: وكان مخيفاً جداً فكيف تقف أمامه ولا تفزع.

ولا نعرف إن صدق الناس قصة الشبان أم لا ولكن ومنذ ذلك الحين انتشرت سمعة بأنه في ذلك البيت تعيش قوى سحرية فقالوا: لا شك أن هذا الكوخ تعيش فيه قوى سحرية، وإلا لما عاشت فيه الفتاة وحيدة.

وصل هذا الكلام إلى كاترينا ولكنها لم تحزن له، بل فكرت:"دعيهم يلفقون فهذا كله لمصلحتي، إذا صاروا يخافونني فلن يتجرءوا على اقتحام منزلي ثانية".

ورأى الجيران أن كاترينا تجلس خلف آلة نحت الحجر، وصاروا يسخرون منها: انظروا لقد جلست تمارس مهنة الرجال، فماذا يمكنها أن تفعل؟

ولكن هذا الأمر أزعج كاترينا أكثر، فهي نفسها كانت تفكر:"هل سأنجح في

هذا العمل؟" ولكنها سيطرت على نفسها سريعاً وقالت:"إنها بضاعة للسوق والبيع التي أصنعها، فلا تحتاج لمهارة كبيرة، المهم أن تكون ملساء، فهل سأعجز عن ذلك أيضاً؟".

نشرت كاترينا الحجر ورأت أن النقش أتى في مكانه المناسب، فاستغربت كاترينا كيف نجح كل شيء بسهولة، فتعبت قليلاً في البداية ثم تعلمت صنع المجوهرات من المعدن المطعم بالحجر الكريم، وفكرت أين ستبيع هذه المجوهرات، فتذكرت أن العجوز ميخائيل كان يأخذ هذه المنتجات البسيطة إلى دكان في المدينة ويبيعها هناك.

وقد سمعت كاترينا الكثير حول هذا الدكان، فقررت الذهاب إلى المدينة، وفكرت في نفسها:"سأسأل هناك إن كانوا سيقبلون منتجاتي مستقبلاً؟".

وهكذا أغلقت الكوخ وذهبت سيراً على الأقدام، ولم ينتبه أحد في المنطقة أنها ذهبت إلى المدينة. عرفت كاترينا أين يقع دكان الرجل الذي كان يشتري البضاعة من العجوز، وذهبت مباشرة إليه.

فنظرت ورأت أن الدكان مليء بمختلف أنواع الأحجار، وخلف واجهة العرض كثرة من المجوهرات المطعمة بالحجر الأخضر. وكان الناس في الدكان محتشدين، بعضهم يشتري وبعضهم يبيع. وكان صاحب الدكان رجلاً جاداً وصارماً.

خافت كاترينا في البداية أن تقترب ولكنها استجمعت شجاعتها وسألت: هل تحتاج لمجوهرات من الحجر الأخضر؟

فأشار السيد إلى واجهة العرض وقال: انظري كم لدي منها.

فقال الحرفيون الذين كانوا يبيعون منتجاتهم: لقد كثرت هذه المنتجات، والذين يصنعونها يشوهون الحجر ليس إلا، ولا يدركون أن المجوهرات تتطلب نقشاً جميلاً.

وقال أحد الحرفيين من المنطقة لصاحب الدكان: إن هذه الفتاة ليست في عقلها، فقد رآها الجيران تجلس وراء الآلة، فلا شك أنها شوهت الحجر تماماً.

فقال صاحب الدكان لكاترينا: حسناً دعيني أرى ماذا جلبت؟

فأعطته كاترينا الجوهرة، فنظر إليها البائع ثم نظر إلى كاترينا وقال لها: ممن سرقت هذه الجوهرة؟

فانزعجت كاترينا بشدة وقالت له بلهجة أخرى: من أعطاك الحق بالإساءة للناس دون أن تعرف من هم؟ فانظر إذا لم تكن أعمى وأخبرني ممن أستطيع أن أسرق كل هذه الكمية من المجوهرات التي لها نفس النقش؟... ثم أخرجت باقي المجوهرات من كيسها ووضعتها على الطاولة.

فرأى البائع والحرفيون أن القطع جميعها لديها نفس النقش، وكان النقش نادراً، يمثل شجرة على غصنها عصفور وتحتها عصفور، وكان النقش واضحاً والعمل ماهراً ونظيفاً. فسمع المشترون هذا الحديث فاقتربوا لرؤية المجوهرات، ولكن البائع غطى جميع القطع فوراً، ووجد لنفسه مبرراً وقال: لا تستطيعون رؤيتها في كومة واحدة، سوف أرتبها على منصة العرض، وعندها اختاروا ما يعجبكم... وقال لكاترينا – اذهبي إلى تلك الغرفة وسآتيك بالنقود فوراً.

فدخلت كاترينا الغرفة وجاء البائع وسألها: بكم تبيعين المجوهرات؟

وكانت كاترينا قد سمعت من العجوز عن الأسعار، فقالت للبائع عن السعر، وانفجر البائع ضاحكاً وقال: ماذا تقولين؟ فسعر كهذا كنت أدفعه للحرفي ميخائيل وتلميذه دانيال فقط. وكانا يتقنان عملهما.

أنا سمعت عن الأسعار منهما... ردت كاترينا – وأنا من نفس العائلة.

هكذا إذاً... استغرب البائع – لا شك أنه بقي لديك مصنوعات صنعها العجوز؟

لا هذا عملي.

ربما بقي لديك الحجر منه؟

لا فقد وجدت الحجر بنفسي.

وكان يبدو على البائع أنه لا يصدقها، ولكنه لم يناقش أكثر. فدفع لها المال بالعدل وقال: إذا صنعت شيئاً كهذا في المستقبل أحضريه إلي فوراً، وسأشتريه منك وأدفع لك سعراً جيداً.

فغادرت كاترينا سعيدة وقد حصلت على نقود كثيرة. أما صاحب الدكان فقد رتب المجوهرات تحت واجهة العرض، وانقض عليها المشترون وهم يسألون: بكم؟

ولم يخطئ البائع طبعاً فقد حدد سعراً أكبر بعشر مرات من الذي دفعه عندما اشترى المجوهرات. وقال للمشترين: لم يسبق أن رأينا نقشاً كهذا، إنه من عمل الحرفي دانيال، ويستحيل صنع أفضل منه.

عادت كاترينا إلى البيت وهي مندهشة وقالت لنفسها: يا للغرابة فعملي كان أفضل من الجميع، ومجوهراتي لاقت القبول. إنه حجر جيد الذي وجدته. لا شك أنها صدفة سعيدة... ثم استدركت نفسها وقالت – ربما كان دانيال هو الذي أرسل لي هذا الحجر إشارة؟

وما إن فكرت بذلك حتى شعرت بالحزن وأسرعت إلى قمة الأفعى.

وكان الحرفي الذي استهزأ بكاترينا أمام البائع قد عاد إلى بيته أيضاً، ولأنه شعر بالحسد الشديد من النقش الذي صنعته كاترينا، فقد قال لنفسه: علي أن أعرف من أين تأخذ الحجر، فلا شك أن العجوز ميخائيل أو دانيال قد عرفاها على مكان جديد.

فرأى أن كاترينا قد أسرعت إلى مكان ما وأسرع وراءها، ورأى أنها ذهبت إلى الجبل من الجانب الآخر، وفكر في نفسه:"هناك الغابة، وسأسير عبرها حتى أصل إلى الحفرة".

فدخلا إلى الغابة، وكانت كاترينا تسير قريبة من الرجل ولا تتوخى الحذر ولا تلتفت وراءها ولا تستمع إلى الأصوات، ففرح الحرفي بأنه سيعرف المكان الجديد بهذه السهولة. وفجأة انتشر ضجيج بالقرب من الحرفي فشعر بالخوف الشديد، ووقف

يتساءل ما الأمر؟ وخلال فترة بحثه عن مصدر الضجيج ، كانت كاترينا قد اختفت عن أنظاره، فبقي يركض في الغابة فترة باحثاً عنها ولكنه لم يجدها وخرج من الغابة بصعوبة.

وكانت كاترينا لا تعرف أن هناك من يتتبع خطاها، وصعدت القمة حيث وجدت حجرها الأول، ورأت وكأن الحفرة صارت أكبر قليلاً، وعلى جانبها حجر شبيه بالحجر السابق، فحركته كاترينا قليلاً وأخرجته من مكانه بسهولة، ثم أمسكت بالحجر وأخذت تبكي وتقول: لمن تركتني يا صديقي الحبيب...

وعندما شبعت من البكاء وشعرت أنها ارتاحت قليلاً، جلست تفكر وتنظر إلى ناحية المناجم. فالمكان هنا يشبه المرج، وحوله غابة كثيفة وعالية، بينما تقل كثافتها وتقصر أشجارها باتجاه المناجم، والشمس تضيء ذلك المكان جيداً وتلمع فيه جميع الأحجار.

فشعرت كاترينا بالفضول وأرادت أن تقترب أكثر، وما إن خطت خطوة نحو الأمام حتى شعرت وكأن شيئاً قد انكسر تحت قدمها، فسحبت قدمها ورأت أنه لا وجود للأرض تحت قدميها، وأنها تقف على قمة شجرة عالية، وحولها من جميع الجوانب أشجار باسقة مماثلة، وفي الأسفل وبين الأشجار تنتشر الأعشاب والأزهار، ولا تشبه الأعشاب والأزهار المحلية.

فلو كانت فتاة أخرى مكان كاترينا لأخذت تبكي وتصيح، ولكن كاترينا فكرت بشيء آخر: "هذا هو الجبل وقد كشف عن جوفه. يا ليتني أرى دانيال هنا".

وما إن فكرت بذلك حتى رأت شخصاً في الأسفل يشبه دانيال ويمد يديه للأعلى وكأنه يريد أن يقول شيئاً ما. فلم تعد كاترينا ترى أحداً غيره فرمت نفسها عليه من أعلى الشجرة ولكنها وقعت على التراب في المكان الذي كانت تقف فيه سابقاً، فعادت لرشدها وقالت لنفسها: لا شك أنني بدأت أتوهم، وعلي بالعودة سريعاً إلى المنزل.

وشعرت أن عليها العودة ولكنها استمرت في الجلوس وكأنها تنتظر أن يكشف

لها الجبل عن باطنه، فترى دانيال ثانية، وبقيت تجلس هكذا حتى انتشر الظلام. وعندها فقط ذهبت إلى البيت، وهي تفكر في نفسها: "لكنني رأيت دانيال على أي حال".

أما الحرفي الذي كان يتتبعها فقد عاد منذ زمن إلى بيته وخرج ثانية ورأى أن كوخ كاترينا مقفل، فجلس ينتظرها ليرى ماذا ستجلب معها هذه المرة، وعندما رآها قادمة قال: أين كنت؟

كنت عند قمة الأفعى... ردت كاترينا.

ليلاً؟ وماذا كنت تفعلين هناك؟

ذهبت لرؤية دانيال.

فأصيب الحرفي بالرعب وهرب، وفي اليوم التالي انتشرت الأحاديث: لقد جنت تماماً عروس الميت. تذهب ليلاً إلى قمة الأفعى وتنتظر الميت هناك. يجب أن نبعدها عن المصنع كي لا تحرقه.

فسمع أخوتها وأخواتها الأحاديث، وجاءوا مسرعين إليها، ليحرسوها ويقنعوها ثانية، ولكنها لم تستمع إليهم، بل دعتهم يرون النقود وقالت: من أين تعتقدون هذا المال لدي؟ إن الباعة لا يأخذون البضاعة من عند الحرفيين الجيدين، بينما مني يأخذون، فلماذا برأيكم؟

وكان أخوتها قد سمعوا بحظها السعيد وقالوا: لا شك أنها صدفة سعيدة، فلماذا نتحدث عنها أكثر.

لا توجد صدف كهذه... ردت كاترينا – إنه دانيال الذي وضع لي حجراً كهذا ونقش عليه النقش.

فضحك أخوتها و لوحت أخواتها بأيديهن معترضات وقالوا: لا شك أنها جنت فعلاً، وعلينا أن نخبر المشرف ، إذ يحتمل أن تحرق المصنع فعلاً.

ولكنهم لم يخبروه طبعاً، فقد خجلوا من فضح أختهم، ولكنهم خرجوا من كوخها واتفقوا مع بعضهم: علينا أن نراقب كاترينا، فأينما ذهبت يجب أن يذهب أحدنا وراءها.

أما كاترينا فقد ودعت أخوتها وأقفلت الباب وبدأت تنشر حجراً جديداً. وقالت لنفسها: إن كان النقش نفسه فذلك إشارة إلى أنني فعلاً رأيت دانيال.

وهكذا أسرعت في نشر الحجر، وكان الفضول يدفعها للإسراع في إنهاء العمل لترى النقش. وكان الليل قد حل وما زالت جالسة خلف آلتها. واستيقظت إحدى أخواتها ورأت نوراً في كوخ أختها، فذهبت وأخذت تنظر من شق الباب ورأت أختها تجلس خلف الآلة واستغربت وقالت: حتى النوم لا يغلبها، لا شك أنه عقاب منزل بها.

نشرت كاترينا قطعة ورأت النقش، وكان هذا النقش أجمل بكثير من النقش السابق، فقد كان الطائر يطير من أعلى الشجرة فارداً جناحيه، والطير في الأسفل يطير باتجاهه، وتكرر هذا النقش خمس مرات بحذافيره. فلم تفكر كاترينا أكثر بل أسرعت وركضت إلى مكان ما، وركضت أختها وراءها، وفي طريقها دقت أبواب أخوتها، أن أسرعوا خلف أختكم. فخرج أخوتها وأيقظ ضجيجهم الناس فلحق بهم حشد من الجيران والمعارف، وبدأ نور الفجر يبزغ، ورأوا أن كاترينا مرت بجانب المناجم، ولفت حول قمة الأفعى، فاختبأ الناس ليروا ماذا ستفعل.

وسارت كاترينا في الطريق الذي اعتادت عليه باتجاه قمة الأفعى، ونظرت حولها فرأت الغابة حولها غريبة نوعاً ما هذه المرة. لمست الشجرة بجانبها فاكتشفت أنها باردة وملساء كالحجر المصقول، والعشب تحت قدميها حجري أيضاً، وكان الظلام سائداً في هذا المكان. ففكرت كاترينا: "لا شك أنني دخلت الجبل".

بينما اشتدت الفوضى بين الناس والأقارب والجميع يتساءل أين اختفت: أين ذهبت؟ فقد كانت هنا قبل لحظات؟

فأخذوا يركضون حول القمة ويخبرون بعضهم بعضاً: "ليست هنا". أما

كاترينا فكانت تسير في الغابة الحجرية وتفكر بكيفية إيجاد دانيال. فسارت بهذه الطريقة فترة ثم أخذت تنادي: دانيال أين أنت؟

فانتشر صدى صيحتها في أرجاء الغابة، وتحركت أغصان الأشجار وردت عليها تقول: إنه ليس موجوداً.

ولكن كاترينا لم تستسلم ونادت ثانية: دانيال أين أنت؟

فردت الغابة ثانية : غير موجود.

فعادت كاترينا ونادت مرة ثالثة: دانيال أين أنت؟

وهنا ظهرت أمام كاترينا سيدة الجبل النحاسي، وسألت الفتاة: لماذا جئت إلى غابتي؟ وماذا تريدين؟ فهل تبحثين عن حجر جيد؟ خذي أي حجر تريدين واذهبي بسرعة.

فردت كاترينا: لا أريد حجرك الميت، أريد دانيال حياً. أين خبأته؟ ومن أعطاك الحق في خطف عرسان غيرك؟

وكانت كاترينا فتاة شجاعة ولم تخف من قوة سيدة الجبل النحاسي. ولكن السيدة بقيت ساكنة وقالت: وماذا لديك أيضاً لتقوليه؟

سأقول لك أن تعيدي إلي دانيال، فأنا أعرف أنه عندك...

فضحكت سيدة الجبل النحاسي وقالت: أنت فتاة حمقاء، فهل تعرفين مع من تتحدثين؟

فردت كاترينا: لست عمياء.. وأعرف مع من أتحدث ولكنني لا أخافك، أنت التي فرقتني عن حبيبي. فمهما كانت مملكتك عجيبة ولكن دانيال يريد أن يعود إلي وقد رأيت ذلك بنفسي، أليس ذلك صحيحاً؟

فقالت السيدة عندها: حسناً دعينا نستمع إلى ما سيقوله هو.

وكانت الغابة قبل ذلك مظلمة جداً، وفجأة وكأنها صارت حية، وانتشر النور في كل مكان، وتلونت الأعشاب في الأسفل بمختلف الألوان المضيئة، وصارت كل شجرة أبهى من الأخرى، وبانت المروج التي فيها أزهار حجرية ونحلات ذهبية تطير فوق الأزهار، فكان الجمال المنتشر هائلاً لا تشبع العين من النظر إليه، ورأت كاترينا دانيال يركض عبر هذه الغابة باتجاهها، فاندفعت كاترينا باتجاهه وصاحت: دانيال.

انتظري... قالت سيدة الجبل وسألت: - حسناً يا معلم دانيال عليك أن تختار الآن، فإن ذهبت معها نسيت كل شيء رأيته لدي، وإن بقيت معي تنساها هي والناس.

لا أستطيع... رد دانيال - أن أنسى الناس، وهي أتذكرها في كل لحظة.

وهنا ابتسمت سيدة الجبل ابتسامة مشرقة وقالت: لقد ربحت يا كاترينا، خذي حبيبك. وهذه هدية لك مني لأنك كنت صلبة وشجاعة، فليبق كل ما تعلمه دانيال عندي في ذاكرته. ولكن هذا فلينسه تماماً... واختفى مرج الورود الحجرية فوراً - والآن اذهبا في ذلك الاتجاه... ونبهت قائلة: لا تحك يا دانيال عن الجبل للناس، بل قل لهم أنك كنت تدرس عند حرفي يعيش في مناطق بعيدة. وأنت يا كاترينا إياك أن تفكري أنني خطفت منك عريسك، فقد جاء إلي بنفسه باحثاً عن الشيء الذي نسيه الآن.

فانحنت لها كاترينا وقالت: سامحيني لأنني تلفظت بألفاظ قاسية.

حسناً رافقتكما السلامة.

وهكذا سارت كاترينا ودانيال عبر الغابة، وصارت الغابة تزداد عتمة، وانتشرت الحفر تحت أقدامهما، فنظرا خلفهما واكتشفا أنهما في منطقة المناجم، وكان الوقت ما يزال باكراً ولم يأت العمال إلى المناجم بعد، فعادا بهدوء إلى المنزل، أما الذين كانوا يتتبعون كاترينا فما زالوا يجوبون الغابة ويخبرون بعضهم بعضاً: "ليست هنا".



فبقوا يبحثون كثيراً ولم يجدوها، فعادوا إلى البيت، ووجدوا دانيال جالساً عند النافذة. فخافوا طبعاً وظنوا أنهم يرون شبحاً، ثم انتبهوا أن دانيال جلس يدخن غليوناً، وفكروا أن الميت لا يدخن، وصاروا يقتربون من الكوخ بالتتابع، فنظروا ورأوا أن كاترينا في الكوخ أيضاً، تطبخ عند الفرن وتبدو شديدة السعادة، ولم يروها هكذا منذ زمن بعيد، فملأتهم الشجاعة ودخلوا الكوخ وصاروا يسألون: أين كنت طوال هذه الفترة يا دانيال؟

كنت في مناطق بعيدة. فقد سمعت عن حرفي يعيش هناك وقالوا لي إنه لا يوجد أفضل من عمله، فأردت أن أتعلم قليلاً، وكان والدي يحاول أن يقنعني بعدم الذهاب. ولكنني ذهبت خفية، ولم أخبر أحداً غير كاترينا.

ولماذا كسرت آنيتك؟

كنت عائداً من سهرة وقد شربت كثيراً، فرأيتها ولم تعجبني وكسرتها، فكل حرفي يحدث معه هذا.

فصار أخوة كاترينا يسألونها لماذا لم تخبرهم عن سفر دانيال، ولكنهم لم يعرفوا منها الكثير فقد اختصرت الحديث وقالت: لقد أخبرتكم كثيراً بأن دانيال حي ولكنكم لم تصدقوني وكنتم تبعثون لي بالعرسان. دعونا نجلس لتناول الطعام، فقد حضرت الفطائر اللذيذة.

وعند هذا الحد انتهت القصة، فقد جلس الأقارب وتحدثوا ثم تفرقوا إلى منازلهم، وذهب دانيال في المساء إلى المشرف، فعنفه المشرف قليلاً ولكنهما سويا الأمور في النهاية.

وهكذا صار دانيال وكاترينا يعيشان في كوخهما، وعاشا حياة سعيدة ورغيدة، وصار الجميع يلقبون دانيال بحرفي الجبل لمهارته، ولم يستطع أحد منافسته، وعاشا في رخاء مادي.

لكن دانيال كان يجلس شارداً أحياناً وهو يفكر في أمر ما، وكانت كاترينا تعرف ما هو ولكنها لم تكن تقول شيئاً.



صاحبة الشعر الذهبي

حدثت هذه القصة في قديم الزمان، ولم يكن الروس موجودين في تلك المناطق كما أن الباشكير لم يكونوا يعيشون على مقربة من هذه المناطق، فقد كانوا يحتاجون إلى المراعي لتربية الماشية.

بينما انتشرت في هذه المناطق غابات كثيفة، ولم يدخل الغابات إلا الذين يريدون اصطياد الحيوان.

وكان من بين الباشكير صياد يدعى آيليب، وكان أمهر الجميع، فقد كان يصطاد الدب من رمية سهم واحدة، ويمسك الأيل من قرنيه ويقلبه فيقتله فوراً، ولا داعي للحديث عن الذئاب والحيوانات الأخرى فلن يفلت منه ذئب واحد، وليس على آيليب إلا أن يراه.

وهكذا كان آيليب في إحدى المرات يركب حصانه في مكان مكشوف فرأى ثعلبة تركض، وكانت الثعلبة صيداً ضئيلاً بالنسبة لصياد مثله، ولكنه فكر في نفسه: "دعني أتسلى بصيدها، فأقتلها بالسوط".

فاندفع آيليب على حصانه باتجاه الثعلبة، ولكنه عجز عن اللحاق بها، فجهز قوسه ليطلق السهم، ورأى أن الثعلبة اختفت. حسناً ماذا إذاً؟ هربت الثعلبة فذلك

مـن حـسن حظهـا. ومـا إن فكـر بـذلك، حتـى رأى الثعلبـة تجلـس خلـف جـذع شـجرة مقطوعة وتنظر إليه وكأنها تقول:"أنّى لك أن تصطادني؟".

فاستعد آيليب ليطلق السهم الثاني واختفت الثعلبة من جديد. فأنزل السهم وعادت الثعلبة للظهور وهي تحرك فمها ساخرة ولسان حالها يقول: أنّى لك أن تصطادني.

فاشتعلت لدى آيليب روح المغامرة، وقال:"حسناً انتظري أيتها الشقراء".

ودخل آيليب في القسم الكثيف من الغابة، ولكنه لم يتوقف عند هذا الحد، فنـزل عـن حـصانه وركـض خلـف الثعلبـة، ولم يحالفـه الحـظ أيـضاً. فقـد كانـت الثعلبـة قريبـة، ولكـن لم يتـسن لآيليـب أن يطلـق الـسهم ، كمـا لم يـستطع التراجـع أيـضاً. فكيـف يعقـل أن يعجـز صـياد مثلـه عـن اصـطياد ثعلبـة. وهكـذا دخـل آيليـب في منطقـة مجهولة تماماً بالنسبة له، واختفت الثعلبة أيضاً، بحث آيليب عن الثعلبـة طويلاً ولم يجدها، وفكر في نفسه:"دعني على الأقل أعرف أين أنا".

فاختـار شـجرة عاليـة وتـسلقها حتـى قمتهـا، ونظـر حولـه فـرأى قريبـاً منـه نهـراً يجري من قمة الجبل، وكان النهر صغيراً وسعيداً وعلى ضفتيه أحجار صغيرة، وفيه مكان يلمع بشدة لدرجة لا تتحملها العين. ففكر آيليب:"ما هـذا يـا تـرى؟" فنظـر ورأى خلف الحشائش فتاة تجلس فوق حجـر أبـيض وتبـدو رائعـة الجمـال وقـد أنزلـت طـرف جديلتها الذهبية الطويلة إلى الماء وقد أضاءت النهر بنور ساطع.

فوقف آيليب مبهوراً بجمال الفتاة، بينما رفعت الفتاة رأسها وقالت:

مرحبـاً آيليـب، قـد سمعـت عنـك مـن مـربيتي الثعلبـة منـذ زمـن بعيـد. وأخبرتني أنـك أضـخم الجميـع وأجمـل الجميـع وأقـوى الجميـع وأنجـح الجميـع. فهـل تريـد أن تكون زوجاً لي؟

وما هو المهر الذي تطلبينه؟

أي مهـر أطلـب ووالـدي سـيد الـذهب كلـه؟ لا إن والـدي لـن يـزوجني ببـساطة، وعلينا أن نهرب إن كان لديك ما يكفي من الشجاعة والمهارة.

فرح آيليب كثيراً ونزل من فوق الشجرة وركض إلى المكان الذي جلست فيه الفتاة، وقال: حسناً طالما أن هذه رغبتك فأنا موافق، وسأحملك على يدي ولن أسمح لأحد بأخذك مني.

وفي هذه اللحظة ظهرت الثعلبة عند الحجر ودقت أنفها بالأرض وتحولت إلى عجوز نحيفة وقالت: يا آيليب، لا تقل كلاماً عبثاً، فأنت تتفاخر بالقوة والنجاح، ولم تستطع أن تصيبني بسهم.

نعم هذا صحيح... أجاب آيليب – فأنا لأول مرة يحدث معي شيء كهذا.

فقالت العجوز: اعلم أن الوضع سيكون أصعب في هذه الحالة، فهذه الفتاة ابنة ملك الذهب، وتدعى بصاحبة الشعر الذهبي، فشعرها من الذهب الخالص، وهذا الشعر هو الذي يقيدها إلى مكانها، فهي تجلس وتغسل شعرها في ماء النهر ولكن وزنه لا ينقص، حاول أن ترفع منديل شعرها، وستعرف إن كنت تستطيع حملها.

وكان آيليب رجلاً قوياً، فأخرج جديلة الفتاة من الماء ولفها حوله عدة لفات، وقال للفتاة: حسناً يا عروسي يا صاحبة الشعر الذهبي، لقد ربطتنا جديلتك بقوة، ولن يستطيع أحد تفريقنا.

قال ذلك وحمل الفتاة على يديه وسار بها. فمدت العجوز له مقصاً وقالت: خذ أيها الذكي ستحتاجه.

فرد آيليب: ولماذا أحتاجه فلدي سكيني.

ولم يكن ليأخذ المقص لولا أن الفتاة أقنعته قائلة: خذه يا آيليب فإن لم تحتجه أنت احتجته أنا.

وهكذا سار آيليب في طريق الغابة، فقد اتضح لديه من فوق الشجرة إلى أين عليه أن يسير. وكان يسير بنشاط في البداية ولكنه شعر بالتعب أيضاً، فصحيح أنه كان قوياً جداً إلا أنه كان من البشر. ورأت العروس أن آيليب تعب فقالت له: دعني أمشي بنفسي وأنت احمل جديلتي، وسيكون السير أسهل فنبتعد أكثر، وإلا اكتشف

أبي غيابي فيجذبني إليه فوراً.

وكيف يجذبك؟... سأل آيليب.

لديه قوة سحرية بجذب الذهب، فباستطاعته أن يسحب إليه إلى أعماق الأرض أي ذهب يشاء، فإن أراد جذب شعري جذبه بسهولة.

حسناً هذا ما سنراه... رد آيليب، بينما ضحكت عروسه صاحبة الشعر الذهبي.

وبقيا يسيران بهذه الطريقة وهما يتحدثان، وكانت الفتاة تحث آيليب على الإسراع وتقول: علينا بالخروج مسافة أبعد، عسى ألا تكفي قوة أبي لجذبنا.

وبقيا يسيران حتى شعرا بالتعب فقال آيليب: دعينا نرتاح قليلاً.

ولكن ما إن جلسا فوق العشب حتى سحبتهما الأرض إلى أعماقها، واستطاعت صاحبة الشعر الذهبي أن تمسك بالمقص وتقص شعرها الذي لف آيليب نفسه به، وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي أبقى على حياته، فذهب الشعر إلى أعماق الأرض وبقي آيليب فوق الأرض. ولكن الأرض ضغطت عليه قليلاً، أما العروس فقد اختفت تماماً، وكأنها لم تكن. خرج آيليب من الحفرة وجلس يفكر:"ما هذا لقد أخذوا منه عروسه ولا يدري من الذي أخذها، يا للعار وأنا لن أسمح بذلك أبداً وسأبقى أبحث عنها طالما أنني حي".

وأخذ يحفر الأرض في المكان الذي جلست فيه الفتاة، وبقي يحفر يوماً ثم يومين، ولكن ذلك لم يكن كافياً، فقد كان آيليب قوياً، ولكنه لم يكن يحمل معه أدوات، فليس معه سوى السكين والقبعة. فماذا يفعل بهما؟ وفكر آيليب في نفسه:"علي أن أترك إشارة في هذا المكان وأعود إلى البيت، وأحضر المجرفة".

وما إن فكر بذلك حتى حضرت الثعلبة التي أدخلته في ذلك المكان، فلمست الأرض بأنفها وتحولت إلى عجوز نحيفة وقالت: أنت يا أيها الذكي، هل تسعى لاستخراج الذهب أم ماذا؟



لا إنني أبحث عن عروسي... أجاب آيليب.

إن عروسك منذ زمن تجلس في المكان القديم، وتذرف الدموع وتبلل جديلتها في ماء النهر، وزاد طول جديلتها مرتين.

فما الحل يا خالة؟... سأل آيليب.

كان عليك منذ البداية أن تسأل لتعرف، ثم أن تفعل. وسيكون عليك القيام بالتالي، عد إلى دارك وعش هناك كما كنت تعيش في السابق. فإذا لم تستطع نسيان عروسك صاحبة الشعر الذهبي خلال ثلاث سنوات، فإنني سأعود لآخذك ثانية. أما إذا ذهبت للبحث عنها وحدك فلن تراها مرة ثانية أبداً.

ولم يكن آيليب معتاداً على الانتظار كل هذه المدة، فقد كان معتاداً على الدخول في خضم المعركة مباشرة، ولكن ليس باليد حيلة فعليه أن يصبر. وهكذا عاد حزيناً إلى بيته.

وامتدت السنوات الثلاث حتى بدا لآيليب وكأنه لن تأتي لها نهاية. فيأتي الربيع وهو ليس سعيداً به، ويتمنى أن ينتهي سريعاً. وصار الناس يلاحظون تغيراً في أحوال آيليب، فلم يعد سعيداً ومرحاً كما كان في السابق. وكان أهله يسألونه:

هل أنت مريض يا آيليب؟

فأمسك آيليب بخمسة أشخاص بيد واحدة ورفعهم وسأل: إذا سألتموني مرة ثانية عن صحتي رميتهم جميعاً خلف ذلك التل.

ولم يسمح آيليب لنفسه بنسيان عروسه صاحبة الشعر الذهبي، فبقي يراها دائماً جالسة أمام عينيه، وكانت رغبته تزداد بشدة لرؤيتها ولو من بعيد، ولكنه بقي يتذكر نصيحة المرأة العجوز ولم يجرؤ على فعل العكس.

ولكن عندما بدأت السنة الثالثة رأى آيليب فتاة شابة ومرحة وشعرها أسود وكلها تشبه العصفورة المرحة. وكان كل همها المرح واللعب، فسلبت هذه الفتاة عقل آيليب، وصار يفكر: "إن جميع الشبان في عمري صار لديهم أسر، بينما أنا وجدت

عروساً ولم أستطع الحفاظ عليها، ومن الجيد أنه لا أحد يعرف بذلك، وإلا كنت أصبحت سخرية الجميع. فلماذا لا أتزوج هذه الفتاة المرحة؟ فأنا لا أضمن أن أحصل على صاحبة الشعر الذهبي بينما هنا أدفع المهر وآخذ العروس، وسيفرح والداها بتزويجها وهي لن تحزن".

فكان يفكر بهذه الطريقة ثم يتذكر عروسه صاحبة الشعر الذهبي، ولكنه لم يتذكرها كالسابق فلم يعد يشعر بالحزن لحالها، بل يشعر بالانزعاج لأنهم أخذوها منه.

وما إن انتهت السنة الثالثة حتى رأى آيليب الثعلبة، ولم يستعد ليطلق عليها سهماً بل سار خلفها وصار يترك علامات على الأحجار والأشجار على طول طريق سيره، حتى وصلا إلى ذلك النهر، ورأى عروسه جالسة هناك، وجديلتها أصبحت أطول بمرتين، فاقترب آيليب وانحنى لها. وقال: مرحباً يا عروسي الحبيبة صاحبة الشعر الذهبي.

مرحباً آيليب، لا تحزن من أن جديلتي أصبحت أطول بمرتين، فقد أصبحت أخف وزناً. يبدو أنك بقيت تتذكرني بقوة، وكنت أشعر بأن الجديلة تخف وزناً مع كل يوم. ولكن في النهاية شعرت بأن الأمر توقف، فهل بدأت تنساني؟ أم منعك عني شخص آخر؟

سألته ذلك وهي تضحك، وكأنها تعرف حقيقة الأمر. فشعر آيليب بالخجل من الاعتراف فوراً ولكنه اعترف في النهاية وقال إنه كان ينظر إلى الفتاة المرحة صاحبة الشعر الأسود وكان يفكر بالزواج منها.

فقالت له صاحبة الشعر الذهبي: من الجيد أنك إنسان صادق، وأنا أصدقك، فدعنا نذهب سريعاً فربما نجحنا في الهرب هذه المرة إلى حيث تعجز قوة والدي عن الإمساك بنا.

فسحب آيليب جديلة عروسه من النهر، ولفها حوله وأخذ من الثعلبة المقص وسارا عبر الغابة إلى البيت. وكان آيليب قد وضع إشارات على طول الطريق، فسارا

بسهولة حتى حل الليل. فقال آيليب: دعينا نصعد إلى أعلى الشجرة لربما عجزت قوة والدك أن تطالنا فوق الشجرة.

نعم دعنا نفعل ذلك... ردت الفتاة.

ولكن كيف لهما أن يصعدا إلى أعلى الشجرة كلاهما وهما مربوطان بالجديلة. فقالت صاحبة الشعر الذهبي: علينا أن نقص الجديلة فعبثاً نحمل كل هذا الثقل معنا.

ولكن آيليب كان يحب شعرها الطويل ولم يستطع أن يقصه فقال لها: لا الأفضل أن نحافظ على شعرك هكذا، انظري كم هو ناعم ورقيق، فلدي رغبة دائمة بلمسه بيدي.

فك آيليب الجديلة عنه، وصعدت الفتاة الشجرة أولاً ولكنها لم تكن معتادة على تسلق الأشجار، فأخذ آيليب يساعدها قدر المستطاع، ثم أسرع آيليب خلفها ورفع جديلتها كاملة عن الأرض، وصعدا إلى أعلى الشجرة. وقال آيليب: سوف ننتظر هنا حتى طلوع الفجر.

وأخذ يربط جديلة عروسه إلى أغصان الشجرة، حتى لا تسقط ليلاً في حال نامت، وبعد أن ربطها جيداً قال: والآن نامي قليلاً وأنا سأحرسك، وما إن يبزغ الفجر أوقظك.

فنامت الفتاة سريعاً، ولم يستطع آيليب منع نفسه من النوم، وغمره نوم عميق لم يستطع طرده من عينه، ففرك عينيه وحرك رأسه، ولكنه لم يستطع التغلب على ذلك النوم، وطارت بومة فوق رأسيهما وهي تصيح، وكأنها تحذرهما أن:"احذرا الخطر". ولكن آيليب لم يشعر بشيء وبقي نائماً، ورأى حلماً وكأنه يعود إلى منزله وتخرج من المنزل زوجته صاحبة الشعر الذهبي لاستقباله، وأنها أجمل الجميع وألطف الجميع، وجديلتها الذهبية تلمع بنور الشمس.

وفي منتصف الليل سمع آيليب تكسر الأغصان واشتعالها، فلسعت النار آيليب

وأسقطته أرضاً، ولم ير سوى حلقة ذهبية ظهرت من أسفل الأرض وأن عروسه صاحبة الشعر الذهبي تحولت إلى نجمة من النجمات الذهبية وأن تلك النجمات طارت إلى الحلقة وانطفأت فيها، فاقترب آيليب من ذلك المكان وبحث بيديه كثيراً فلم ير شيئاً، ولم يجد شيئاً غير العشب والحجارة. فوجد في مكان نهاية الجديلة ففرح قليلاً وقال: "لقد تركت عروسي ذكرى لي. ويمكننا تحقيق أن لا تطال قوة والدها جديلتها".

وما إن فكر بذلك حتى رأى الثعلبة عند قدميه، فلمست الأرض بأنفها وتحولت إلى عجوز نحيفة، وقالت: آه يا آيليب، ماذا كنت تريد الجديلة أم العروس؟

أنا أريد عروسي مع جديلتها الذهبية.

تأخرت... قالت العجوز- فقد أصبح طول الجديلة أطول بثلاث مرات.

لا بأس... أجاب آيليب –إنه أمر ثانوي. علي أولاً أن أجد عروسي الحبيبة.

حسناً قل ذلك منذ البداية، إليك نصيحتي الأخيرة، اذهب إلى بيتك وانتظر ثلاث سنوات أخرى، ولن آتي لإحضارك مرة أخرى بل ابحث عن الطريق بنفسك، واحضر بعد مرور ثلاث سنوات تماماً ولا تتأخر ساعة واحدة، وانحن لجدك البوم عسى أن يزيدك ذلك عقلاً.

قالت ذلك واختفت وكأنها لم تكن، وما إن بزغ الفجر حتى ذهب آيليب إلى منزله وفكر في نفسه: "عن أي بوم كانت تتحدث؟ فالبوم كثير في الغابة. فأي بوم أنحني له؟".

وبعد تفكير تذكر كيف كان يجلس فوق الشجرة ورأى بوماً يطير فوق رأسه ويصيح، وكأنه كان يحذره ويصيح:"احذر الخطر".

ففكر آيليب:"لا شك أنها تحدثت عن هذا البوم"، وعاد آيليب إلى نفس المكان، وجلس حتى المساء وصار ينادي: يا جدي البوم، علمني ودلني على الطريق.

وبقي يصيح بهذه الطريقة ولكن لم يرد عليه أحد. ولكن آيليب صار أكثر

صبراً. فانتظر يوماً آخر وأخذ ينادي مساءً: يا جدي البوم.

فسمع من فوق الشجرة: نعم.. من يريدني؟

فحكى له آيليب مشكلته وطلب منه النصيحة، فقال له البوم: إنه أمر صعب يا بني، صعب جداً.

ليس المصيبة في أن الأمر صعب، لأنني سأبذل كل قوتي وصبري، كي أجد عروسي.

حسناً سأدلك على الطريق فاستمع إلي.

وحكى له البوم الأمور وفق ترتيبها: إن ملك الذهب لديه قوة هائلة في مناطقنا هذه؟ فهو سيد الذهب كله في هذه المناطق، ويستطيع أن يأخذ الذهب من أي شخص. وبمقدوره أن يسحب كل المكان الذي يظهر فيه الذهب إلى خاتمه. وحتى لو بقيت تركب حصانك ثلاثة أيام بلياليها لن تستطيع الهرب من هذا الخاتم. ولكن يوجد في مناطقنا مكان لا تصل إليه قوة ملك الذهب. فإذا استخدمت مهارتك فيمكنك ن تأخذ الذهب وتهرب من ملك الذهب. ولكن هذا الأمر سيكلفك غالياً، فليس من هناك طريق للرجعة.

فأخذ آيليب يرجو البوم: أرجوك دلني على هذا المكان.

لا أستطيع أن أريك المكان لأننا لا نتفق معك بالرؤية، فأنا لا أرى في النهار وأنت لا ترى في الليل.

فما الحل إذاً؟... سأل آيليب.

فقال الجد البوم عندها: سوف أدلك على علامة أكيدة. اذهب إلى البحيرات وتفحصها وسترى في وسط إحدى البحيرات صخرة في وسط البحيرة، تشبه الهضبة، ومن إحدى جهاتها تنمو أشجار السرو، وثلاث جهات عارية من أي شيء. ذلك هو المكان، فالذي يصل ومعه الذهب إلى تلك الصخرة ينفتح له طريق للأسفل، تحت البحيرة. وهناك لا يستطيع أن يطاله ملك الذهب.

فتذكر آيليب البحيرات الموجودة في المنطقة ووجد أن المواصفات تنطبق على بحيرة إتكول ففرح وصاح: أعرف هذا المكان.

ولكن البوم أصر على رأيه وقال: حاول أن تتفحص البحيرات كي لا تخطئ.

حسناً... قال آيليب — سأرى.

فأضاف البوم: - ولكن تذكر أنك إذا هربت من ملك الذهب فلا طريق للرجعة.

شكر آيليب الجد البوم وذهب إلى منزله. ووجد البحيرة سريعاً ورأى الصخرة في وسط البحيرة، وقال لنفسه:"لا يكفي يوم للوصول إلى ذلك المكان، يجب تجهيز طريق للخيل".

وبدأ آيليب يصنع طريقاً، ولم يكن هذا العمل سهلاً ليقوم به لوحده عبر غابات كثيفة. وصار يعمل كثيراً وعندما ينهكه التعب، يخرج من جيبه طرف جديلة عروسه وينظر إليها ويلمسها بيده فيشعر وكأنه استجمع قوته من جديد، فيعود ثانية إلى العمل. فمرت ثلاث سنوات بلمح البصر، وقد انتهى لتوه من تجهيز كل شيء.

وجاء خلف عروسه في الساعة المحددة تماماً، فأخرج جديلتها من النهر ولفها حوله، وركضا سوية عبر الغابة. فوصلا إلى الطريق الذي جهزه آيليب وهناك كانت تنتظرهم ست خيول، فأجلس آيليب عروسه على حصان وجلس على آخر وأمسك بلجام الخيول الباقية، وانطلقوا وكلما تعب حصانان جلسا على غيرهما، وكانت الثعلبة تركض في المقدمة وهي تحث الخيول على العدو خلفها. ومع حلول المساء استطاعوا الوصول إلى البحيرة. فركب آيليب وعروسه والثعلبة في زورق ونقلهم آيليب سريعاً إلى الصخرة وسط البحيرة. وما إن اقتربوا من الصخرة حتى انفتح ممر فيها، فأسرعوا في الدخول في ذلك الممر وفي نفس الوقت غربت الشمس.

وقد تحدثوا كثيراً عما حدث هناك، فما إن غربت الشمس حتى أحاط ملك الذهب البحيرة كلها بثلاث حلقات نارية، وانتشرت فوق الماء في جميع الجهات

شرارات نارية. ولم ينجح في إخراج ابنته من البحيرة. وكان البوم العجوز يزعج ملك الذهب. فقد جلس فوق حجر البحيرة وصار يصيح ساخراً. فما إن يصيح هكذا ثلاث مرات حتى تبهت الحلقات النارية، وكأنها أخذت تبرد. وما إن تشتعل من جديد وتعود الشرارات الذهبية للانتشار فوق سطح الماء، حتى يصيح البوم صيحة جديدة.

فحاول ملك الذهب أكثر من ليلة أن يخرج ابنته، ولكنه لم يستطع، فلم تصل قوته إلى ذلك المكان. ومنذ ذلك الحين ظهر الذهب على شواطئ تلك البحيرة. حيث لا يوجد أي آثار للأنهار في حين أن الذهب موجود. وكله ذهب صغير كالخيوط، بينما القطع الكبيرة غير موجودة. فمن أين للذهب أن يوجد هنا؟ فيقولون أنه ذهب من جديلة ابنة ملك الذهب. وهناك كثرة من الذهب. وأتذكر أنه في أيامي كانت تحدث خلافات كثيرة على هذا الذهب بين الباشكير وبين أصحاب المعامل .

أما آيليب فقد بقي مع زوجته صاحبة الشعر الذهبي تحت البحيرة. ولديهما هناك المراعي الواسعة وقطعان الخيل والغنم. بمعنى آخر حرية.

ويقولون أن صاحبة الشعر الذهبي تخرج إلى الصخرة أحياناً، وقد رآها الناس، فهي تخرج عند الفجر وتجلس، وتتدلى جديلتها الذهبية على طول الحجر. ويا له من جمال رائع.

ولكنني أنا شخصياً لم أرها ولا أريد أن أكذب.



البئر الأزرق

عاش في منطقة مصنعنا شاب يدعى إيليا ، وقد بقي يتيماً تماماً، فقد توفي جميع أقاربه. وقد ورث شيئاً من كل قريب من أقاربه.

فمن والده ورث يديه وكتفيه، ومن أمه أسنانها وأحاديثها، ومن جده إغنات ورث الآلات والماكينات، ومن جدته ورث إرثاً خاصاً سيدور الحديث عنه أولاً.

فقد كانت هذه الجدة ماكرة وكانت تجمع الريش في الشوارع، وتصنع وسادة لحفيدها، ولكنها لم تستطع إكمال الوسادة. وعندما شعرت بدنو اجلها، نادت حفيدها وقالت: انظر يا حفيدي إيليا ، كم جمعت جدتك من الريش. إنه يكفي لملء غربال. وانظر إلى الريشات كم هي صغيرة وناعمة، فخذها ذكرى عني، لأنك ستحتاجها.

وعندما تتزوج ستجلب زوجتك وسادة، وأنت لن يكون لديك ما يخجلك، فليس جديداً عليك أن تنام على وسادة فجدتك صنعت لك واحدة.

ولكن لا تسعَ وراء هذا الأمر، فإن جلبت لك وسادة كان حسناً، وإن لم تجلب لا تحزن. بل ابق فرحاً سعيداً، واعمل جيداً ويمكنك أن تنام على القش، فترى حلماً جميلاً. وعندما تطرد الأفكار السيئة من رأسك كل أمورك ستسير على ما يرام. وسيفرحك ضوء النهار وتهدهدك عتمة الليل وتدفئك الشمس الحمراء. أما إذا

أدخلت الأفكار السيئة إلى رأسك فكل شيء يفقد رونقه ولا تعود ترى شيئاً جيداً في هذا العالم.

عن أي أفكار سيئة تتحدثين يا جدتي؟... سأل إيليا.

إن الأفكار السيئة التي أتحدث عنها هي أفكار حول المال والغنى، فلا أفكار أسوأ منها. فلا يجني الإنسان من تفكير كهذا إلا الانزعاج والبلبلة الفارغة فبالصدق والضمير يصعب على الإنسان أن يجمع ريشاً ليصنع وسادة، فما بالك إذا أردت تجميع الثروات.

فكيف إذاً... سأل إيليا – نفهم ثروات الأرض؟ فالغنى موجود...

نعم إنه موجود ولكنه ليس مضموناً: فهو يأتي كومة ويذهب غباراً ويسبب للإنسان الحزن والكآبة. فلا تفكر به ولا تقلق نفسك.ويقولون هناك نوع واحد من الغنى القادم من الأرض وهو نقي ومضمون، وهو عندما تتحول العجوز الزرقاء إلى صبية جميلة وتقدم الثروة بيديها للإنسان. وتعطي العجوز الزرقاء الثروة للشخص الذكي والماهر وصاحب النفس النقية. ولا أحد غيره. فتذكر يا ولدي إيليا نصيحتي الأخيرة لك.

فانحنى إيليا للجدة وقال: شكراً لك يا جدتي لوكيريا، لأنك جمعت لي الريش وقدمت لي نصيحتك، ولن أنساها ما حييت.

وبعد فترة توفيت الجدة العجوز وبقي إيليا وحيداً، هو كبير البيت وصغيره. وطبعاً حضرت العجائز المسؤولة عن مراسم الدفن وغسلوا العجوز وألبسوها ودفنوها. وكانت هذه العجائز تعملن في هذه المهنة لأن حياتهم ليست ميسورة، فيأخذن من أغراض البيت ويطلبون ما يعجبهن، فأخذت العجائز كل ما أعجبهن، وعندما عاد إيليا من مراسم الدفن وجد كوخه فارغاً. ولم يبقَ فيه سوى الثياب التي خلعها إيليا وعلقها فور وصوله. كما أنهن أخذن الريش الذي جمعته الجدة، ولم يبق في الغربال سوى ثلاث ريشات. ريشة بيضاء وأخرى سوداء وثالثة شقراء.

انـزعج إيليـا لأنـه لم يحـافظ علـى الريـشات الـتي تـركتهـا لـه جدتـه ذكـرى عنهـا، فقـال لنفـسه:"علـي أن أحـافظ علـى هـذه الريـشات الـثلاث، فقـد بـذلك جـدتي جهداً ﴿ جمعها وأنا تصرفت وكأن الأمر لا يعنيني".

فـالتقط خيطـا أزرق كـان مرميـاً علـى الأرض وربـط الريـشات الـثلاث وثبتهـا ﴿ قبعتـه. وقـال:"هنـا المكان المناسـب لهـا، فكلمـا ارتـديت قبعتي أو نزعتهـا رأيـت الريـشات وتـذكرت جـدتي ونـصيحتها، فهـي نـصيحة سـتفيدني ﴿ حيـاتي. وعلـي أن أبقيهـا ﴿ ذاكرتي دائماً".

ثم ارتدى معطفه وقبعته وذهب إلى المنجم. ولم يقفـل كوخـه، لأنـه لم يبـق فيـه شيء. فليس فيه سوى الغربال الفـارغ القـديم، الـذي لـن يأخـذه أحـد حتـى لـو رآه علـى الطريق.

وكـان إيليا ﴿ سن الـزواج، وكـانوا يعتبرونـه مـن العرسـان ﴿ المنطقـة، وقـد عمـل ﴿ المنـاجم سـبع سـنوات، ففـي تلـك الفـترة الـتي كـان فيهـا الإقطـاع سـائداً كـانوا يجبرون النـاس علـى العمـل منـذ نعومـة أظـافرهم. فكـان واحـدهم قـد عمـل لحـساب الإقطاعي عشر سنوات قبل أن يتزوج. ويمكننا أن نقول أن إيليا أيضاً كـبر وهـو يعمـل ﴿ المناجم.

وكان يعـرف هـذه المنـاطق بطولهـا وعرضـها، وكـان الطريـق إلى المنـاجم طـويلاً، فخطـر علـى بـال إيليـا خـاطر فقـال لنفـسه: "دعني أذهـب عـبر مـستنقع زوزيـل، فـالحر شديد، ولا شك أن المستنقع قد جف وسيسهل علي عبوره".

قـال دلـك وتوجـه ﴿ طـريق المستنقـع عـبر الغابـة، وكـان يمـشي بنـشاط ﴿ البدايـة ولكنه تعب أخيراً وأضاع الطريق. فقـد كانـت الطريـق مخفيـة والأجـزاء الظـاهرة مـن أرض المستنقع كانت تقوده ﴿ اتجاه آخر.

وأخــيراً خــرج إلى مــرج صــغير تنمــو عليــه الأعــشاب وكــان ﴿ وســطه مكــان مـنخفض، وجوانبـه أكثـر ارتفاعـاً وبجانبـه شـجرة حـور عاليـة. فعـرف إيليـا أنـه مكـان جـاف تمامـاً. وكـان الأمـر الوحيـد الـسيئ أن إيليـا لم يكـن يعـرف إلى أيـن يتجـه. فكـم

مرة كان في هذه المناطق ولكنه لم ير سابقاً مرجاً كهذا.

وهكذا سار إيليا في منتصف الطريق بين نتوءات الأرض. وبقي يسير حتى رأى وسط المرج بئراً مستديراً وفيها ماء نقي ولكن لا ترى للماء قاعاً. وكان يبدو أن الماء نقي ولكنه مغطى بشبكة عنكبوت زرقاء اللون وفي وسطها عنكبوت أزرق.

ففرح إيليا لرؤية الماء فأزال شبكة العنكبوت وأراد أن يشرب، وفجأة وما إن قرب وجهه من الماء حتى شعر بدوار ورغبة شديدة في النوم. فقال لنفسه:"إن السير في المستنقع أتعبني كثيراً، وعلي أن أنام ساعة". وأراد أن ينهض عن الأرض ولكنه لم يستطع فزحف باتجاه قبعته ووضعها تحت رأسه واستلقى لينام. ورأى أنه خرجت من ذلك البئر عجوزقصيرة القامة، ثوبها أزرق ومنديل رأسها أزرق وهي كلها زرقاء اللون، ونحيفة الجسم، لدرجة يبدو لك أن نسمة الريح يمكن أن تحركها. ولكن عينيها كانتا شابتين وزرقاوين وكبيرتين، وكأنما لا يكفيهما المكان.

نظرت العجوز إلى الشاب ومدت إليه يديها وبدا أن يديها تمتد وتطول، حتى وصلتا إلى رأسه، وكانت يداها رقيقتين كالذباب الأزرق، وليس فيهما قوة ولا مخالب، ولكن إيليا شعر بالخوف. وأراد إيليا أن يزحف بعيداً عنها ولكن قوته لم تكفه. ففكر في نفسه: "دعني أبعد عنها نظري لعلي لا أخاف". فأبعد وجهه عنها ولمس أنفه الريشات الثلاث على قبعته. فشعر برغبة شديدة في العطاس، وأخذ يعطس ويعطس وشعر بتحسن كبير في حاله.فالتقط إيليا قبعته ونهض على قدميه. ورأى أن العجوز في نفس المكان ترجف من الغيظ، فقد وصلت يداها إلى قدمي إيليا ولكنها لا تستطيع رفعهما أكثر. فعرف إيليا أن العجوز قد ارتكبت خطأً، فلم تعد قوتها تصل إليه، فعطس عدة مرات أخرى وقال بسخرية: ماذا لم تقوي علي أليس كذلك؟

فبصق على الأرض وذهب. وحكت العجوز بصوت رنان وشاب: انتظر ولا تفرح كثيراً، فإذا أتيت مرة ثانية لن تغادر المكان حياً.

ولكنني لا أنوي أن آتي مرة ثانية... أجاب إيليا.

لا شك أنك خفت... فرحت العجوز.

فانزعج إيليا لهذا الكلام، فتوقف وقال: طالما أنك قلت ذلك فسآتي قصداً لأغرف ماءً من بئرك.

فضحكت العجوز وأخذت تسخر من الشاب وتقول: أنت تباهى بنفسك، ولكن عليك أن تقول شكراً لجدتك لوكوريا، فريشاتها أنقذت حياتك، ولذلك لا تتباهى بنفسك. فلم يولد إنسان بعد يستطيع غرف الماء من بئري.

حسناً سنرى إن ولد أو لم يولد... رد إيليا.

ولكن العجوز بقيت تصر على رأيها وتقول: إنك ثرثار ليس أكثر، فكيف ستحصل على الماء إن كنت خائفاً من الاقتراب مني. أن كلامك فارغ. إلا إذا جلبت معك أشخاصاً أكثر شجاعة منك.

لا... صاح إيليا – هذا ما لن تحصلي عليه مني، كي أجلب لك أشخاصاً آخرين. فقد سمعت كم أنت مزعجة وكيف تخدعين الناس.

فظلت العجوز تكرر نفس الكلام: لن تأتي.. لن تأتي. فأنى لك أن تتجرأ على ذلك.

وعندها قال إيليا: حسناً عندما تكون الريح قوية في يوم العطلة انتظريني فسآتي لزيارتك.

ولماذا تحتاج إلى الريح؟

سترين يومها... رد إيليا- أنت فقط انتظريني .. لا تنسي.

سوف أسحبك بيد واحدة إلى بئري وستكون ملكاً لي، ولن تساعدك الريح ولا ريشات جدتك.

وبعد هذه المشادة الكلامية، تابع إيليا طريقه، وأخذ يحفظ الطريق ويقول لنفسه: "هذه هي إذاً العجوز الزرقاء. تبدو وكأنها على حافة قبرها، ولكن عينيها عينا فتاة شابة تصرعان الفرسان بجمالهما، وصوتها كصوت صبية شابة، يرن رنيناً عجيباً، يا ليتني أرى كيف تتحول إلى فتاة شابة".

كان إيليا قد سمع الكثير حول العجوز الزرقاء، فقد تحدثوا عنها كثيراً في المناجم. أن الناس كانوا يصادفونها في مناطق المستنقعات البعيدة وأعماق المناجم. فحيث تجلس العجوز الزرقاء تتوضع الثروات الأرضية.فإن استطعت طرد العجوز الزرقاء من مكانها ينفتح لك بئر مليء من الذهب والأحجار الكريمة. فاغرف عندها كل ما استطاعت يدك أخذه. وكثيرون ذهبوا للبحث عن الثروة ولكنهم عادوا بلا شيء، وبعضهم لم يرجع أصلاً.

ومع حلول المساء وصل إيليا إلى المنجم.فسأله المشرف غاضباً: لماذا تأخرت؟

فشرح له إيليا أنه كان مشغولاً بدفن جدته لوكوريا. فشعر المشرف بالخجل ولكنه رغم ذلك وجد لنفسه شيئاً يعترض عليه فقال: ما هذه الريشات التي تضعها على قبعتك؟ وما هي مناسبة وضعها؟

إنها... أجاب إيليا – إرث جدتي. ووضعته هنا للذكرى.

فأخذ المشرف وكل من كان حولهما يضحكون من إرث كهذا، لكن إيليا قال لهم: حسناً، فأنا لن أبدل هذه الريشات بهذا المنجم بكامله. لأنها ليست ريشات عادية بل ريشات تحمل الدعاء، فالريشة البيضاء تجعل يومي سعيداً، والسوداء تجعل ليلي هادئاً، والشقراء تجعل أيامي مشمسة.

وكان يمزح طبعاً. ولكن أحد الشبان الذي كان حاضراً ويدعى كيريل، وكان من عمر إيليا وقد ولدا في نفس الشهر، ولكنه لم يكن يشبه إيليا في شيء. وكان يحب الثروة كثيراً وصار له فترة يفكر في طريقة لإيجاد الذهب أو سرقته وكان يفكر في نفسه:"إن وجدت ذهباً أخذته لنفسي". وكان يحب أن يأخذ مال غيره لنفسه ويسرق كل ما وضع بغير حرص من صاحبه. وقد سببت له عادته هذه علامة على جسمه، فقد ضربه أحدهم بالمجرفة وسبب له ندبة على وجهه عندما كان يحاول السرقة.

وكان كيريل هذا يحسد إيليا كثيراً، فإيليا كان شاباً قوياً وعظيم البنية ومرحاً وماهراً، وكانت أعماله تسير بيسر. فكان عندما ينهي عمله يجلس ليأكل

ويغني أو يرقص. ولم يكن لدى كيريل أي شيء لينافس به إيليا فلا قوة ولا حيوية ولا جمال.

وكان عند كيريل رأيه الخاص في هذه المسألة فقال: "لا شك أن إيليا يعرف كلمة ما تجلب له الحظ والنجاح في العمل". وما إن سمع بريشات إيليا حتى قال في نفسه:"هذا هو إذاً مصدر الحظ عند إيليا".

ومن الطبيعي أنه سرق الريشات في نفس الليلة. وفي اليوم التالي انتبه إيليا لغياب الريشات وظن أنه أسقطها. فذهب يبحث عنها في المنجم. وصار العمال يسخرون منه ويقولون: هل أنت في كامل وعيك أيها الشاب، فكم قدم داست في هذا المكان طوال اليوم، وأنت تبحث عن ريشات صغيرة؟ لا شك أنها أصبحت غباراً. ثم ما فائدة تلك الريشات؟

كيف؟... سأل إيليا – إن هذه الريشات هي ذكرى من جدتي.

فقالوا له: الذكرى تحفظ في مكان أمين أو في الذاكرة وليس فوق القبعة.

ورأى إيليا أنهم يقولون الحق وتوقف عن البحث عن تلك الريشات. ولم يخطر بباله أبداً أن الريشات سُرِقَت.

وصار الهم الجديد عند كيريل أن يراقب إيليا وكيف ستسير أموره الآن، بعد أن فقد ريشات جدته. فرأى كيريل أن إيليا أخذ دلواً واتجه نحو الغابة. فذهب كيريل خلفه وهو يفكر:"لا شك أنه وجد ذهباً في مكان ما". ولكنه لم ير أي ذهب، بل رأى أن إيليا ثبت الدلو على عود من الخشب، ثم ثبت تحته ثلاثة أعواد خشبية أخرى. فزاد فضول كيريل وتساءل لِمَ كل هذا.

وكان الخريف على الأبواب وبدأت الريح تشتد. وفي يوم السبت عندما كانوا يصرفون العمال باكراً إلى منازلهم، طلب إيليا الإذن بالذهاب إلى المنزل أيضاً. فاعترض المشرف في البداية وقال له: لقد ذهبت منذ فترة قريبة إلى المنزل، ثم لماذا تذهب فليس لديك أسرة، وقد أضعت ريشاتك وهي كل ما لديك في المنجم.

ولكنه سمح له بالذهاب رغم ذلك. وكيريل لم يفوت فرصة كهذه فذهب منذ الصباح الباكر إلى المكان حيث كان الدلو مخبأً واختبأ ينتظر مجيء إيليا، واضطر أن ينتظر طويلاً، ولكن عادات السارقين معروفة، فقد قيل إن السارق أكثر صبراً من الكلب فما بالك أن تقارنه بغيره من الناس. وعند الصباح جاء إيليا وأخرج الدلو وقال: آه لا يوجد ولا ريشة واحدة، رغم أن الريح قوية وستنشط عند منتصف النهار أكثر.

وبالفعل فقد اشتدت الريح لدرجة أن صفيرها انتشر في أرجاء الغابة. فسار إيليا في الطريق الذي ترك فيه علاماته، وسار كيريل خفية وراءه وهو يفكر سعيداً.

"لا شك أن هذه الريشات هي التي تدله على طريق الثروة".

واحتاج إيليا لوقت طويل ليتتبع الآثار، وكانت الريح تخفت تدريجياً. وما إن خرج إلى المرج حتى هدأت الريح تماماً، ولم يتحرك غصن واحد. نظر إيليا ورأى العجوز الزرقاء تقف عند البئر، تنتظره وتصيح بصوت رنان: جاء المقاتل وقد أضاع ريشات جدته وليس لديه ريح هنا. فماذا يفعل الآن؟ اركض إلى بيتك وانتظر الريح. ربما يسعفك الانتظار.

وكانت العجوز تقف جانباً عند البئر ولا تمد يديها باتجاه إيليا، ويحوم فوق البئر ضباب أزرق كالقبعة. فانطلق إيليا بأقصى سرعته باتجاه البئر وأدخل الدلو في الضباب الأزرق وصاح: ابتعدي أيتها العجوز الخبيثة كي لا أصدمك صدفة، فغرف من البئر وشعر بثقل وزن الدلو، وأخرجه بصعوبة. أما العجوز فأخذت تضحك ساخرة مظهرة أسناناً شابة بيضاء ناصعة. وقالت: سوف أرى كيف ستخرج الدلو من البئر. وهل ستشرب الكثير من ماء بئري.

ورأى إيليا أن الدلو ثقيل فعلاً فغضب بشدة وصاح للعجوز: اشربي بنفسك... فشد عزيمته ورفع الدلو قليلاً وأراد أن يقلبه على العجوز، ولكنها ابتعدت سريعاً، فانطلق وراءها، فانكسر مقبض الدلو وانسكب الماء. فضحكت العجوز ثانية وقالت: أنى لك أن تنجح في ذلك؟

انتظري أيتها العجوز الشمطاء سوف أسكب عليك ماء بئرك كوني أكيدة.

فقالت له العجوز: حسناً.. مزحنا ويكفي، أرى أنك شاب قوي وشجاع. تعال في ليلة البدر عندما تشاء، وسأريك مختلف الكنوز وخذ قدر ما تشاء. فإذا لم أكن موجودة قل:"جئت بلا دلو" فتحصل على كل ما تريد.

إنني أريد أن أراك تتحولين إلى فتاة شابة... قال إيليا.

سنرى حسب عملك... ردت العجوز وابتسمت فظهرت أسنانها الناصعة.

وكان كيريل قد سمع كل ذلك ورأى كل ما حدث. ففكر في نفسه: "علي أن أعود سريعاً إلى المناجم وأحضر حقائب كبيرة. كي لا يسبقني إيليا".

وهرب كيريل بينما سار إيليا ببطء إلى منزله، فقطع المستنقع وعاد إلى بيته، واكتشف اختفاء غربال جدته. فاستغرب إيليا ، فمن الذي يحتاج لغربال عتيق كهذا؟ فذهب إلى أصدقائه في المصنع وسألهم وعاد إلى المنجم، ولكنه لم يمشِ بطريق المستنقع بل بالطريق التي يسير فيها الجميع.

ومر على تلك الحادثة خمسة أيام ولم تخرج الحادثة من رأسه، فقد صار يفكر فيها خلال العمل، كما صارت تزعج نومه. وكان يرى عيني العجوز الزرقاوين ويسمع صوتها الرنان وهي تقول:"تعال في ليلة البدر متى شئت".

وهكذا قرر إيليا: "سأذهب لأرى الكنوز كيف تكون. وربما تظهر لي العجوز صبية شابة".

وفي تلك الأثناء بدأ هلال جديد يضيء السماء وصارت الليالي أكثر نوراً. وفجأة انتشرت أحاديث في المنجم أن كيريل ضاع. فذهبوا إلى المصنع وبحثوا عنه فلم يجدوه. وأمر المشرف أن يبحثوا في الغابة فلم يجدوه أيضاً. وكان كل واحد يفكر في نفسه:"لن نخسر شيئاً من اختفاء سارق". وعند هذا الحد انتهى الأمر.

وعندما صار القمر بدراً ذهب إيليا إلى مكان البئر. فنظر ولم يجد أحداً. فلم يغادر إيليا وقال بهدوء: جئت بلا دلو.

وما إن قال ذلك حتى ظهرت العجوز وقالت بلطف: أهلاً وسهلاً بك يا ضيفنا العزيز. إنني أنتظرك منذ زمن. اقترب وخذ كل ما تستطيع أخذه.

فرفعت غطاء البئر بيديها وكشف البئر عن كنوز لا نهاية لها، فشعر إيليا بالفضول لرؤية الكنوز، ولكنه لم يقترب. فصارت العجوز تعجل عليه قائلة: ما لك تقف هناك، أقول لك اقترب وخذ ما تستطيع.

فرد إيليا: ليس لدي حقيبة وقد سمعت من جدتي لوكيريا كلاماً آخر. أن الثروة التي تعطيها للإنسان بيديك هي فقط الثروة النقية والأكيدة.

يا لك من متطلب، فأنت تريد أن أقدم لك الكنز أيضاً. حسناً فليكن كما تريد.

وما إن قالت العجوز ذلك حتى ظهر عمود من الدخان الأزرق من أعماق البئر وخرجت من البئر فتاة جميلة ترتدي ثياباً وزينة كالملكات، وطولها كنصف طول شجرة الحور. وتحمل في يديها طبقاً مليئاً بالكنوز، من رمل ذهبي وأحجار كريمة. اقتربت هذه الفتاة من إيليا وقدمت له الطبق بانحناء وقالت: تفضل أيها الشجاع.

وكان إيليا قد كبر في المناجم وزار مناطق استخراج الذهب ويعرف كيف يزنون الذهب. فنظر إلى الطبق وقال للعجوز: إنك تفعلين ذلك لتسخري مني. فليس بمقدور أي رجل أن يحمل طبقاً كهذا.

ألن تأخذه؟... سألت العجوز.

لا ولن أفكر بذلك حتى... أجاب إيليا.

حسناً فليكن كما تريد. سأقدم لك هدية أخرى... قالت العجوز.

فاختفت تلك الفتاة التي تحمل الطبق مباشرة. وخرج عمود من الدخان الأزرق من البئر، وخرجت فتاة أخرى أقصر طولاً من سابقتها، وهي جميلة أيضاً وترتدي ثياب ابنة التجار. وتحمل في يديها طبقاً فضياً وعليه كومة من الكنوز. فرفض إيليا أخذ هذا الطبق أيضاً وقال للعجوز: ليس بمقدور الإنسان أن يرفع طبقاً كهذا وليس بيديك تقدمينه.



فضحكت العجوز ضحكة فتاة وقالت: حسناً فليكن كما تريد، سأسلي كلينا ولكن شريطة ألا تندم بعد ذلك.

قالت ذلك واختفت فوراً الفتاة التي تحمل الطبق والعجوز الزرقاء. فبقي إيليا واقفاً وحيداً. فمل من الانتظار، وفجأة سمع حفيف العشب بجانبه، فالتفت إيليا إلى جهة الصوت، ورأى فتاة بسيطة فقيرة تقترب منه وطولها كما طول الإنسان العادي، وعمرها يقترب من الثماني عشرة سنة، وثوبها أزرق ومنديل رأسها أزرق وحذاؤها أزرق. وكانت الفتاة جميلة جداً ولطيفة، فعيناها كالنجمتين وحاجباها كالقوسين وشفتاها كحبة فراولة وجديلتها طويلة وشقراء موضوعة فوق كتفها وفيها شريطة زرقاء.

فاقتربت الفتاة من إيليا وقالت: تقبل يا صديقي العزيز إيليا هديتي أقدمها لك من كل قلبي.

وقدمت له بيديها البيضاوين غربال الجدة لوكيريا وكان مليئاً بأصناف الثمار والفاكهة، وفوقها ريشات الجدة الثلاث، ريشة بيضاء وأخرى سوداء وثالثة شقراء، مربوطة فيما بينها بخيط أزرق.

تقبل إيليا الغربال وبقي واقفاً كالأحمق لا يدري من أين جلبت هذه الفتاة غربالاً مليئاً بالثمار الصيفية والربيعية في فصل الخريف. فسألها: من أي عائلة أنت أيتها الفتاة الحسناء؟ وقولي ما اسمك؟

فضحكت الفتاة وقالت: يسميني الناس بالعجوز الزرقاء، أما الإنسان الماهر والشجاع ونقي النفس يراني كما تراني أنت الآن، ولكن هذا يحدث نادراً.

وعندها أدرك إيليا مع من يتحدث، فسألها: ومن أين لك هذه الريشات الثلاث؟

فأجابته: إن كيريل السارق جاء يبحث عن الكنوز. فسقط في البئر وأسقط حقائبه معه، فطافت ريشاتك الثلاث. يبدو أنك شاب بسيط.

ولم يدر إيليا ما يقول، ووقفت الفتاة صامتة وهي تلعب بشريط جديلتها. ثم

قالت: حسناً يا صديقي إيليا، فأنا العجوز الزرقاء. دائماً عجوز ودائماً شابة. ومربوطة بالكنوز المحلية إلى الأبد.

ثم صمتت قليلاً وسألت: حسناً يكفيك نظراً إلي، وإلا فسوف تراني في منامك.

ثم تنهدت وشعر الشاب وكأن تنهيدتها جرحت قلبه كالسكين. وكان مستعداً لتقديم أي شيء حتى تصبح فتاة حقيقية، ولكنها اختفت.

وبقي إيليا يقف في مكانه فترة طويلة بعد. وانتشر الضباب الأزرق على كامل المرج، وعندها فقط توجه إيليا عائداً إلى بيته. ومع حلول الضوء وصل كوخه، وشعر أن الغربال زاد ثقلاً وتمزق قاعه وتساقطت على الأرض الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة.

فدفع إيليا للإقطاعي مالاً مقابل حريته، وأقام لنفسه بيتاً كبيراً ومتيناً، واشترى حصاناً. ولكنه لم يستطع الزواج.فلم تكن تلك الفتاة تبرح تفكيره. وهرب النوم من عينيه. ولم تساعده ريشات الجدة لوكيريا. وصار يقول: آه يا جدتي لوكيريا قد علمتني كيف أحصل على ثروة العجوز الزرقاء، ولم تعلميني كيف أطرد عن نفسي الحزن والكآبة، يبدو أنك أيضاً لم تكوني تعرفين ذلك.

فبقي يتعذب فترة ثم قرر أخيراً: "الأفضل أن أغطس في ذلك البئر، من أن أتحمل عذاباً كهذا".

فذهب إلى مستنقع زوزيل، وأخذ معه ريشات الجدة. وكانت فترة نضوج الثمار قد جاءت. وصار الناس يذهبون لقطف الفراولة.

وما إن اقترب إيليا من الغابة، حتى صادف مجموعة من الفتيات حوالي العشرة تحملن سلالاً مليئة بالفراولة. وإحدى الفتيات كانت تسير في المقدمة وعمرها يقارب الثماني عشرة عاماً وترتدي ثوباً أزرقاً ومنديلاً رأس أزرق، وكانت لطيفة وجميلة جداً. فحاجباها كالقوسين وعيناها كالنجمتين وشفتاها كحبة الفراولة ، وجديلتها الشقراء الطويلة تتدلى من فوق كتفها. وتشبه تماماً التي رآها عند

البئر. والاختلاف الوحيد بينهما هو أن تلك كانت ترتدي حذاءً أزرق اللون، أما هذه فتسير حافية القدمين.

فوقف إيليا مبهوراً ينظر إلى الفتاة، بينما هي نظرت إليه بعينيها الزرقاوين وابتسمت عارضة أسنانها البيضاء. فقال إيليا: كيف حدث أني لم أرك سابقاً.

فقالت له: حسناً انظر قليلاً. فأنا بسيطة في هذا الشأن ولن أعترض.

أين تعيشين؟... سأل إيليا.

اذهب في طريق مستقيم ثم سر نحو اليمين. فترى هناك جذع شجرة مقطوعة. فاركض بأقصى سرعتك واضرب الجذع برأسك. فما إن يتطاير الشرار من عينيك حتى تراني.

وكانت تسخر منه طبعاً، كما هي عادة الفتيات. ثم عرفته على نفسها وأخبرته في أي شارع تعيش وما هو اسمها. وكانت عيناها تشدانه إليها. فوجد إيليا نصيبه مع هذه الفتاة. ولكن لم يعيشا فترة طويلة. فقد كانت من سكان مناطق استخراج المرمر، ولهذا لم يرها إيليا سابقاً. وكانت فتيات تلك المنطقة أجمل الفتيات، ولكن الذي يتزوج من إحداهن يترمل سريعاً، فقد تربوا بجانب الحجر منذ نعومة أظافرهم، وينتشر بينهم مرض السل الرئوي.

كما أن إيليا لم يعش نفسه فترة طويلة، فلا شك أنه التقط العدوى. أما في منطقة مستنقع زوزيل فقد اكتشفوا منجماً كبيراً. فلم يخفِ إيليا سراً أين حصل على الكنز. فصار الناس ينقبون في تلك المناطق، فاكتشفوا في مستنقع زوزيل منجم ذهب.

وأذكر أنه في أيامي كان الذهب ما يزال يستخرج من هذه المناطق. أما البئر فلم يجده أحد، بينما الضباب الأزرق ما زال منتشراً فوق المستنقع يعد الناس بالثروة.

فنحن لم نحفر إلا عند السطح بينما يقولون أن بئر العجوز الزرقاء عميق، وينتظر من يعثر عليه.



بجعات يرماك

كان يرماك واحداً من شعب القوزاق الذين عاشوا على ضفاف نهر الدانوب، فحضر إلى مناطقنا ووجد مباشرة طريقاً نحو سيبيريا، ولم يكن أحد من سكان منطقتنا قد ذهب إلى هناك، فأبحر إلى هناك مع جيشه عبر الأنهار.

ولكن يا ليت الأمر كان بهذه السهولة، أن جلس في الزورق وجدف بالمجاديف وعبر نهر الكاما ثم إلى نهر التور، ثم تنقل بين أنهار سيبيريا حيثما شاء، ويقولون أنك تستطيع أن تصل إلى الصين بهذه الطريقة.

والكلام سهل ولكن الفعل صعب، فلن يتوقف الأمر على التعب، فما إن تصل إلى التفرع الأول حتى تعترضك العقبة الأولى، فليس هناك نقاط علام ولا أسماء، فلا تعرف أي نهر هذا، فتجلس لتخمن في أي اتجاه توجه المركب.

فلا تفكر يا صديقي أن طريق النهر سهل. فالواقع أن ركوب المركب في نهر غريب أصعب من عبور أكبر الغابات.

فالسبب الرئيسي هو في غياب نقاط العلام، كما أنك لا تسير وحدك بل النهر يسيرك. فإذا لم تكن تعرف الطريق مسبقاً، فإنك ستتعب نفسك وتتعب الآخرين معك، ويحتمل أن تهلك الجميع معك.

فإذا كان الأمر كذلك في أيامنا هذه فإنه كان أكثر تعقيداً في أيام يرماك. ففي تلك الأزمنة لم يكن هناك ولا إنسان روسي لا في سيبيريا ولا في مناطقنا.

وكانوا يعرفون من بين الأنهار المحلية نهر التشوسوف، ولم يسمعوا أصلاً بنهر التور أو نهر اليرتيش. فكيف برأيك سيعرف الإنسان الغريب عن هذه المناطق الطريق فيها.

فلم تكن الخرائط النهرية موجودة وقتها، وكان يستحيل إيجاد دليل يدلك على الطريق. ولهذا لم يذهب أحد من سكان مناطقنا إلى هناك.

ويروي شيوخ تشوسوف القصة بهذا الشكل، في الأزمنة التي لم يكن فيها في مناطقنا ولا مدينة ولا مصنع ولا قرية روسية، أقامت عائلة ستروغانوف الإقطاعية قرية على ضفاف نهر تشوسوف، وكانت القرية صغيرة ولكنها كانت تسمى مدينة لأنها كانت محاطة بسور متين، وحول السور قناة دائرية عميقة وخندق أرضي وفيه سور خشبي عالٍ، ومن الجانبين بوابة متينة، وأقيمت الأبراج ليتم إطلاق النار منها ورمي الحجارة من المنجنيق، في حال أن جاء عدو مفاجئ. وكان سكان مدينة تشوسوف من الجنود والفلاحين.

ومن ضمن السكان كان شخص اسمه تيموفي، ولا أعرف إن كان جاء إلى هذه المدينة بإرادته أم أنه نفي إلى هناك، ولكنه كان يعيش هناك مع عائلته.

وكان لديه ثلاثة أبناء، ليس بينهم غبي أو أحمق. فثلاثتهم كانوا من الأذكياء والشجعان، وكان أصغرهم فيليب مميزاً بين الجميع، بوجهه الجميل وأحاديثه الشيقة، وقوته العظيمة.

ورغم أنه يقولون إن الناس لا يولدون قادة إلا أنك تستطيع أن تعرف منذ طفولة الإنسان إن كان سيصبح قائداً أم لا.

وكان فيليب يقود أقرانه منذ نعومة أظافره، ويحب لعبة الاستطلاع.

وكان الوقوف عند البوابة لا يسمح برؤية الكثير، فجمع من أقرانه مجموعة

وأعطى لكل واحد منهم عصا. وقد أُعطي أمر لحراس البوابة بعدم السماح للأولاد بالخروج خارج البوابة، ولكن فيليب وجد طريقة للخروج.

فكان يقترب من السور ومعه حبل، فيسند رمحه الخشبي إلى الجدار ويرمي عقدة الحبل إلى أعلى العمود، ثم يرمي رمحه إلى الجهة الأخرى، ثم ينزل إلى هناك بنفسه، ويفك العقدة بعصاه ، ويصيح: حسناً من يستطيع ذلك أيضاً؟

والذي كان من الصبية عاجزاً عن فعل ذلك يخرج من اللعبة فوراً. فيقول له فيليب: نحن لسنا بحاجة لضعاف مثلك.

وكان فيليب والآخرون يعاقبون كثيراً من قبل الأهل بسبب هذه اللعبة، ولكنهم لم يتوقفوا عن لعب هذه اللعبة. وكانوا يخرجون خارج الأسوار في كل فرصة سانحة.

وهكذا توجه الأولاد مرة إلى الغابة، وأضاع بعضهم بعضاً، فالذين كانوا أضعف خافوا سريعاً وأخذوا يصيحون وتجمعوا سريعاً، إلا فيليب لم يأت. فما العمل؟ أرادوا في البداية أن يعودوا إلى بيوتهم، ولكنهم خجلوا من أنفسهم لأنهم فكروا بترك قائدهم لوحده.

فوقفوا عند أحد الأنهار يصيحون وينادون فيليب بأعلى صوتهم. ثم استجمعوا شجاعتهم وساروا على طول النهر، وهم يصفرون ويصيحون.

أما فيليب فقد حدثت معه القصة التالية. فقد سار على طول هذا النهر وابتعد كثيراً. وسمع فجأة ضجيجاً، وأراد العودة سريعاً ولكنه غير رأيه، واختبأ في الأحراش، وجلس يستمع إلى الضجيج الذي كان قريباً منه، ولكنه لم يستطع أن يفهم مصدره. فتسلق فيليب شجرة حور عالية ونظر حوله ورأى أن النهر ينقسم إلى فرعين في الأعلى بسبب وجود جزيرة هناك.

وكانت الجزيرة عالية ولا يمكن غمرها بالماء. وبالقرب من الماء كانت حشائش خضراء عالية، وهناك رأى بجعة تمد عنقها، وتصيح وكأنها غاضبة.

وهناك دب يتجه إلى مكان البجعة عبر النهر، وهو مبلل تماماً. ويلوح برأسه ويصيح غاضباً. فتهاجمه بجعة أخرى وتضربه بجناحيها وتنقره بمنقارها.

والبجعة طبعاً طير ضخم وخاصة عندما تفرد جناحيها، وجناحاها فيهما قوة هائلة. ومنقارها الأحمر حاد وقوي. فإذا نقرت به الدب فإنه سيئن كالكلب.

ولكن رغم ذلك لا تستطيع البجعة التغلب على الدب، فتغلب الدب على البجعة ولم يبقى منها سوى الريش موزعاً فوق ماء النهر. وهنا انطلقت البجعة الأخرى تاركة عشها وهاجمت الدب، ولكن الدب قتل هذه البجعة أيضاً وسحبها إلى ضفة النهر، وكان يصيح وكأنه هو الذي يشتكي. ثم رمى البجعة جانباً وعاد إلى غابته.

وعندما هدأ الوضع نزل فيليب عن الشجرة وسار نحو العش، فوجد فيه بيض البجع. وهذا البيض يشبه بيض الإوز ولكنها أكبر وأكثر اخضراراً.

لمس فيليب البيض بيده فوجده ساخناً، فشعر فيليب بالحزن على البجعات وفكر:"ماذا لو وضعت هذا البيض تحت الإوزة التي لدينا ترقد على بيضها؟ فربما تبقى حية. ولكن يجب أن أوصلها كاملة إلى البيت".

فأخرج الخبز من كيسه وجمع أعشاباً جافة وملأ بها الكيس ووضع فيه ثلاث بيضات. فقد خاف أن يأخذ أكثر فيكسرها في طريقه. كما فكر أنه إذا أخذ بيضاً كثيراً فإن جدته ستلاحظ الأمر.

ثم اتجه عائداً إلى المدينة، ولم يفكر أنه أضاع الطريق. فقد كان يعرف أن النهر يقود إلى تشوسوف. وعندما اقترب أكثر سمع رفاقه ينادونه ويصفرون له. فأدرك فيليب عندها لماذا هرب الدب.

فمن المعروف أن الحيوان يشم ويسمع أبعد من الإنسان، ولا يحب أصوات الناس. فلا شك أنه سمع صوت الأولاد وهرب.

فاستجاب فيليب لأصوات رفاقه، وبعد فترة اجتمعوا جميعاً وروى فيليب لرفاقه ما حدث معه. وما إن سمع الأولاد بوجود الدب حتى أخذوا يتلفتون حولهم واتجهوا

بسرعة نحو المدينة. فلو كان الوضع مغايراً لعاب فيليب على رفاقه هذا الجبن، ولكنه كان مستعجلاً لإيصال البيض دافئاً وسليماً إلى البيت.

وكانت والدة فيليب متوفاة منذ زمن بعيد، وكانت جدته أوليانا تدير شؤون المنزل. وكانت عجوزاً صارمة ولم تكن تتساهل مع أحفادها ولا مع أبيهم.

فصاحت في وجه فيليب أولاً وقالت: أين كنت؟

ولكنه وجد عذراً وقال: لقد ذهبت إلى الغابة لجمع الطحالب الجافة، لأضعها في زاوية الحظيرة، ألا تذكرين أنك طلبت ذلك من والدي عدة مرات وقد نسي ذلك. بينما أنا جلبت لك كيساً مليئاً من الطحالب. ولكنها مبللة بعض الشيء ويجب تجفيفها فوق المدفأة.

وصعد مباشرة إلى فوق المدفأة الحجرية الضخمة والتي كان يوضع فوقها فراش النوم. تذمرت الجدة بعض الشيء، ثم سألته مع من ذهب ولماذا لم يخبرها بذهابه، ثم أوصته قائلة: وزع الطحالب بطبقة رقيقة على امتداد المدفأة الحجرية كلها.

وهذا ما كان فيليب يريده. فجلس في زاوية المدفأة، وأخرج بيض البجعة، ولفها بالقماش، ووضعها في أدفأ مكان، ووزع الطحالب على سطح المدفأة كلها.

وما إن انتشر الظلام حتى أخذ قبعته الشتوية وأخذ البيضات وذهب إلى الإوزة الراقدة فوق بيضاتها. فأصاب القلق الإوزة، فأخذت تنقر فيليب في رأسه ويديه، لكنه لم يكترث لها بل تابع القيام بعمله. فأخرج من العش ثلاث بيضات إوز ووضع بدلاً منها ثلاث بيضات بجع.

فبقيت الإوزة تقلق في اليوم التالي أيضاً، وتدحرج البيض بقدميها، ورغم ذلك لم ترمي البيض الغريب من العش.

والجدة أيضاً كانت تأتي لتفحص وضع الإوزة والبيض ولكنها أيضاً لم تميز الفرق واكتفت بالاستغراب وقالت:يا لها من بيضات غير متساوية في حجمها، فبعضها كبير وبعضها صغير. فما الأمر يا ترى؟

فبقي فيليب صامتاً كي لا يفضح نفسه، وكان قد رمى البيض الذي أخذه من تحت الإوزة خارج أسوار المدينة. فمرت الحادثة دون أن يكتشفها أحد.

ولكن أمراً واحداً لم ينجح، فبيض الإوز لم يفقس بعد في حين أن فراخ البجعة بدأت تخرج من البيض وهي تصيح، فذعرت الجدة أوليانا وقالت: ما الأمر؟ لماذا فقس البيض قبل الأوان، لا شك أنه علامة على قرب وقوع الحرب أو انتشار وباء ما.

فلم يسمح ذكر الإوز باقتراب الفراخ الجديدة منه، وكانت الإوزة حائرة لا تعرف ماذا تفعل، ولكنها لم تتخلَ عن الفراخ. وبالمقابل كان فيليب يحاول جهده، فلم يبتعد عنهم، بل أخذ يسقيهم ويطعمهم في الوقت المحدد. وجدته رغم كل جديتها فقد مدحته أمام أخوته الكبار.

عليكم أن تتعلموا من أخيكم الأصغر كيف تساعدون جدتكم. فانظروا كيف جلب الطحالب من الغابة، والآن يعتني بفراخ الإوز، بينما أنتم ماذا تفعلون؟ لا يهمكم شيء سوى تناول الطعام.

وكان الأخوان يعرفان السر فأخذا يسخران ويقولان للجدة: نخشى أن تتحدثي حديثاً آخر في الخريف.

فاشتد غضب الجدة وصاحت عليهم مهددة. ومع مجيء الخريف تبين للجميع أنهم يربون بجعات. فسخرت الجارات من الجدة أوليانا وقلن لها: كيف لم تنتبهي حتى ربيت فراخ البجعة، ولا يمكنك فعل شيء بهم.

وكانت الجدة امرأة حادة الطبع ولم يكن يعجبها أن تظهر هفوتها أمام الناس، فقالت: قد فعلت ذلك قصداً، فقد جلب حفيدي بيض بجع، وأراد أن يعرف إن كانت البجعات ستهجرنا إن ربتهم إوزة أم لا.

ولكنها رغم ذلك نظرت بانزعاج إلى فيليب وقالت: انظر كيف أنت، فما زلت صغيراً وأصبحت تخدع جدتك.

وكان عند فيليب همه الخاص، فاثنان من الفراخ صارا يتشاجران كل يوم،

شجاراً عنيفاً، ولا يمكنك الاقتراب منهما وإلا أوقعاك أرضاً.

أما الفرخ الثالث فلم يشارك في الشجار أبداً بل بقي يسير جانباً.

فشرح أحد الكبار لفيليب: إنها بلا شك بجعة. وطالما أن أحدهما لن يبعد الآخر تماماً عنها، فسيستمر شجارهما دائماً. وأخشى أن يقتلا نفسيهما.

وصارت الجدة تنزعج من شجار ذكري البجع بشكل خاص فتصيح على فيليب، وفيليب لا يعرف ماذا يفعل؟ وانتهى الأمر بأن أحد ذكري البجعتين لم يرجع من النهر. فبقي اثنان وانتهت الخلافات.

فهدأ الوضع ولكن الجدة أوليانا ظلت غاضبة. فقد اقترب الشتاء، فصارت تفكر كم من الطعام ستحتاجه البجعتان، ولا فائدة منهما.

فأخذت الجدة تحاول طرد البجعتين، كما أن البجعتين لم يحبانها أيضاً، وكانا يهاجمانها دائماً وينقرانها بمنقاريهما.

فقالت العجوز لابنها: افعل يا تيموفي ما تشاء ولكن اطرد هذين الطيرين من الدار، وإلا غادرت أنا، فدبر أمور منزلك كما تشاء.

فرأى فيليب أن الأمور سيئة وزاد حزنه، فلأترك علامة عليهما لربما رأيتهما يوماً فأتعرف عليهما. فربط على عنق كل بجعة خيطاً فيه خرزة، للذكر خرزة حمراء وللبجعة خرزة زرقاء.

وكانت البجعتان قد شعرتا باقتراب الفراق، فكانتا تلتصقان بفيليب ودموعهما في عينيهما. وصار رفاقه يسخرون منه ويقولون: إن قائدنا غمره الحزن.

فقال لهم: أشعر بحزن شديد على فراق بجعتي لدرجة تدفعني للبكاء. فهما سيطيران وينسيانني. وكان يبدو وكأن البجعتين تفهمان هذا الحديث. فيسرعان إلى فيليب ويضعان رأسيهما تحت يده وكأنهما يريدان رفعها ولسان حالهما يقول: كن مطمئناً فلن ننساك.



وعندما اشتد البرد وبدأت الطيور البرية ترحل باتجاه البلاد الدافئة، غادرت البجعتان. واستمر غيابهما طوال فصل الشتاء، ثم عادا في فصل الربيع. ولكنهما لم يعودا إلى دار تيموثي، بل كانا أينما رأيا فيليب يطيران إليه ويداعبانه.

كما أنهما أوقعا الجدة أوليانا وهي تطلع على الجبل مع دلوي الماء. ولم يؤذيانها بل أخافاها قليلاً وكأنهما كانا يمزحان. وكأنهما يقولان لها، إننا نتذكر حنان فيليب ونتذكر عصاك. وهذا هو ردنا عليك.

واستمر الوضع على هذه الحال، فما إن يأتي الشتاء حتى تختفي البجعتان، ومع الربيع تعودان وتزوران فيليب. ثم تعلم بنفسه كيف يجذبهما إليه.

فكان يخرج إلى مكان فسيح ويناديهما بصوتهما. فيأتي أحدهما أو كلاهما سريعاً، ويصدر جناحاهما ضجيجاً قلقاً وكأنهما يستفسران هل أزعج أحد ما فيليب. فإذا كان بجانبه شخص ما فإنهما يهاجمانه حتى يسقطانه أرضاً. ثم يركضان باتجاه فيليب ويمدان عنقيهما الطويلين ويلوحان بجناحيهما ويقفزان ويصيحان ويفرحان كما تفرح الإوزات المنزلية عندما تقدم لها الطعام.

وهكذا توالت فصول الشتاء والصيف، وكبر فيليب وصار شاباً قوياً تسعد العين لرؤيته. فحديثه ذكي وصوته رجولي وجسمه قوي وعقله راجح ووجهه جميل، فحاجباه عريضان وشعره ناعم وعيناه مرحتان وحادتان.

فشاب كهذا يخرج من بين ألف شخص، ويجد لنفسه مكانة جيدة. وهو شاب ذكي وشجاع ويحب رؤية الأماكن الجديدة. وكان أكثر ما يحبه هو أن يبحر إلى الأماكن التي لم يزرها بعد.

وبهذه الطريقة صار أفضل من يعرف الطرق النهرية. وقد سبق وتفوق في هذا المجال على جميع الشيوخ الذين صار لهم عمر في هذا المجال.

فلم يغب عن عين عائلة ستروغانوف الإقطاعية وجود شاب كهذا ، فعينوه رباناً وصاروا يمدحونه ويقولون: رغم أنه شاب ولكننا لا نخشى أن نرسل معه أي حمولة.

وبعد فترة صار فيليب معروفاً في جميع موانئ عائلة ستروغانوف. وكان أفضل ربان في المنطقة على الإطلاق. فكلما أرادوا أن يرسلوا بضائع نفيسة وكان الطريق مجهولاً وصعباً كانوا يرسلون فيليب.

وكان تعامل فيليب مع الناس جيداً، وكان الناس يحبون فيليب على ذلك. وبقي لقبه بين الناس رقيقاً فقد لقبوه منذ طفولته بالبجعة.

أما بالنسبة للزواج فقد تأخر فيليب قليلاً، فقد تزوج رفاقه منذ فترة بعيدة، بينما بقي هو عازباً، ولم يكن والده يغصبه وكان يترك هذا الأمر لفيليب. فرأى فيليب أنه آن الأوان ليتزوج وصار يبحث لنفسه عن زوجة.

ولم يكن صعباً على فتى مثله أن يجد لنفسه زوجة، فأي فتاة كانت ستقبل به بسرور، ولكنه تعالى قليلاً وكان هذا خطأه.

فقد كان في مدينة تشوسوفسك مدير، وكانوا يدعونه بالوالي، وكان عند هذا الوالي ابنة في سن الزواج. فصار فيليب يتطلع إلى تلك الفتاة.

وكان الأهل والأصدقاء يقولون لفيليب: يستحسن ألا تنظر إلى نوافذها. فهي ليست من طينتك، ورجال أبيها يمكنهم أن يؤذوك بسهولة.

ولكن في أمر كهذا هل يمكن الاستماع إلى صوت غير صوت القلب. وليس عبثاً قالوا أنك إذا أحببت بومة فلن ترضيك طيور الجنة كلها.

وكان فيليب يرد غاضباً: هذا ليس من شأنكم... وكان يفكر في نفسه:"من الذي سيؤذيني، فأنا قوي كفاية لأدافع عن نفسي".

أما الفتاة ابنة الوالي فقد تبين أن مظهرها خادع، فهي من النوع الذي يبدو في وجهه كالوردة أما في داخلها فهي كالحجر الأسود.

كانت تنظر إلى فيليب بحنان وتفكر في نفسها بأمر آخر، فقالت له مرة من نافذتها بصوت خافت، وكأنها تخاف أن يسمعها أحد: تعال صباحاً إلى بستاننا. أريد أن أتكلم معك.

ففرح فيليب كثيراً، وجاء إلى بستان الوالي مع طلوع الفجر، وكان ينتظره هناك خمسة من خدم الوالي من ضخام الجثة. وظهر الوالي نفسه فوراً وأمر قائلاً: قيدوه واجلبوه للعقاب.

فلم يبق أمام فيليب إلا أن يقاتلهم، فأخذ يوزع ضرباته عليهم. فصرعهم جميعاً وقفز من فوق السور وهرب. وطبعاً علا الضجيج والصياح واجتمع حشد من الناس وكان الوالي يصيح: اقبضوا عليه...

فرأى فيليب أن الوضع صعب، فركض باتجاه بوابة المدينة، وكانت ما تزال مغلقة في هذا الوقت المبكر، ولكن ماذا يهمه في الأمر، فقد نزع زناره وصنع منه عقدة ورماها على جدع من السور وقفز خارج أسوار المدينة. ثم وصل إلى شاطئ النهر واختار لنفسه قارباً خفيفاً ومتيناً وقاده عبر نهر تشوسوفسك للأعلى.

وكان الوقت ربيعياً والثلوج تذوب فوق أعالي الجبال، ونهر تشوسوفسك في أوج قوته. ولا يمكنك أن تخرج إلى أعلى النهر باستخدام المجداف كما يتوجب على الشخص أن يعرف النهر جيداً كي يتجنب الصخور في طريق قاربه، فاعتمد فيليب على قوته وذكائه، فقال : من الذي يمكنه أن يلحق بي في مياه كهذه؟

ولكن الأمر لم يكن كما توقعه. فمهما كانت قوة الرجل ومعرفته للنهر، إلا أنه يستحيل عليه أن يهرب من ملاحقيه إذا كانوا عدداً من الأشخاص يجدفون.

ولسوء حظه أنه أخطأ بتحريك الصارية في مكان من النهر ولم يطل قاع النهر ففقد سيطرته على القارب وبدأت المياه تحركه في دوامة. فحاول فيليب إصلاح الوضع ولكن ملاحقيه وصلوا، وكانوا يركبون ثلاثة قوارب ومجموعهم أربعون شخصاً.

فلم يبقَ أمام فيليب إلا أن يقفز إلى الماء ويسبح باتجاه الشاطئ، وليكن ما يكون. ولكنه أيضاً ليس أمراً مضموناً، فشعر أن قواه خارت، ويستحيل الاختباء في الغابة في فصل الربيع لأن الآثار تشاهد عن بعد.

وكان الوالي في مقدمة القارب الأول وكأنه يقود القوارب، وعندما رأى مشكلة فيليب فرح وصاح: ماذا؟ وقعت أيها المتسلل.

فالتفت فيليب ليرد على الوالي بكلمة قاسية ولكنه لمح في أعالي السماء طيري بجع، وعلى عنقيهما خرزتين تلمعان تحت ضوء الشمس.

ففرح فيليب وشعر وكأن تعبه قد تبخر كله فصاح بأعلى صوته يناديهما. وشاهدت البجعتين الوضع من الأعلى وعرفتا ماذا تفعلان، فهاجمت بجعة القارب الأمامي وضربت الوالي وأسقطته في ماء النهر بجناحيها وهاجمت الأخرى القارب الخلفي وأسقطت المسؤولين عن تحريك الصارية، كما ضربت الرجال الذين يجدفون ، فبعضهم خرج الدم من أنوفهم وبعضهم تأذت رؤوسهم.

فنتج عن ذلك تأخير كبير عند رجال الوالي، فقد هموا يخرجون الوالي من الماء وكان الأمر صعباً فقد كان بديناً ومبللاً وماء النهر خفيف وسريع الحركة فكاد أن يغرقه.

ولكن الوالي رغم كل ذلك لم ينسَ مراده وبقي يصيح: اقبضوا عليه حياً، فأنى له أن يهرب مني.

ولكن أنى له أن يقبض على فيليب، فقد صنعت البجعتان كل هذه الفوضى ثم حطتا على سطح الماء بجعة على يمين القارب وأخرى على يساره والتصقتا به وقادتاه بسرعة كبيرة لدرجة أن الغابة ظهرت وكأنها تركض.

فمن المعروف أنه لا يوجد طير يسبق البجعة فوق الماء، فمن بعيد يبدو أن البجعة ساكنة لا تتحرك، ولكن حاول أن تلحق بها.

وهكذا ضاع فيليب، ومهما أرسل الوالي ناسه للبحث عنه فلم يبق أي أثر. والحقيقة أن رجال الوالي كانوا يخافون الابتعاد بعيداً في مجرى النهر، أما فيليب والبجعتان فقد قطعوا منطقة تشوسوف كلها، وجاب فيليب جميع الأنهار وشاهد المناطق المحيطة،فقد كان لديه فضول قوي تجاه ذلك.

ولهذا ربما كان من حظه أن يكون أول من شرب من ماء سيبيريا من نهر تاهيل. فقد وصل إلى نهر مجهول وفهم من انحدار النهر أنه يتجه باتجاه الشرق، فشعر بفضول ليعرف ماذا هناك، ولكن البجعتين رفضتا وعبرتا عن قلقهما وكأنهما تقولان له: لا تفكر حتى أن تتجه إلى هناك، فاستمع فيليب إلى نصيحتهما ولم يتجه في مجرى نهر تاهيل.

ولم تبنِ البجعتان عشهما في ذلك الصيف ففقد بقيتا إلى جانب فيليب، فلم يقتصر فعلهما على إنقاذه من رجال الوالي وبينتا له الطرق النهرية، كما أنهما كشفتا له الكنوز المحلية.

فعندما ترفع البجعة جناحها الأيمن وتشير به إلى جبل ما أو سهل، فينظر فيليب إلى ذلك المكان ويرى ما في داخله من ثروات من الذهب والأحجار الكريمة.

وعندما ترفع البجعة جناحها الأيسر، ينكشف أمام نظر فيليب كل الغابة على امتداد أميال، فيرى أنواع الحيوان والطير التي تعيش في تلك الغابة

وبوجود البجعتين لم يكن عند فيليب أي هم من ناحية الطعام والشراب. وعندما تقترب البجعتان من ضفة ما وتصفقا بأجنحتها ينفتح في ذلك المكان ميناء صغير، فيدخلان الزورق فيه ، وهناك تنكشف مغارة فيها طعام وشراب جاهزان.

وكان كل شيء جيداً ولكن فيليب بدأ يشعر بالحنين إلى الناس. وكان فيليب يظن أن ابنة الوالي لم تسلمه بإرادتها، وإنما سمع شخص ما حديثهما.

كان يرأف لحال تلك الفتاة. ويقول: لا شك أنها الآن سجينة في بيت والدها، تجلس وتذرف الدموع حزينة. سأفعل المستحيل لأخرجها من أسرها.

ورأت البجعتان أن فيليب زاد حنينه نحو البيت فنصحتاه بعدم الذهاب ولكنهما لم تمنعاه، وعندما وجه فيليب القارب باتجاه المدينة ساعدته البجعتان كثيراً وأوصلتا القارب في يوم واحد من أعلى المجرى إلى تشوسوفسك، فأوصلا فيليب إلى المناطق التي يعرفها ثم ودعتاه ونبهتاه أنه حينما يحتاج إليهما أن يناديهما.

وبعدها طارت البجعتان وبقي فيليب وحيداً، فسعى للوصول سريعاً إلى المدينة. وانتظر حلول الظلام بصعوبة، وكان الوقت يقترب من الخريف وبدأ الظلام يحل باكراً وكان ذلك من حظ فيليب.

وكان من السهل على فيليب أن يدخل المدينة دون أن يراه الحراس، فقفز من فوق السور وسار بهدوء ولم ينبح عليه كلب حراسة واحد، فليس عبثاً أن قالوا أن الشجاع لا تنبح عليه الكلاب.

أراد فيليب أن يمر أولاً على أحد أصدقائه القدامى ليسأله عن الأوضاع ولكن كيف يمكنه أن يمر بجانب بيته ولا يدخله.

فشعر فيليب بالفضول، ووقف ينظر من وراء السور، وشعر أن شيئاً ما قد تغير ولم يستطع أن يفهم ما الأمر. فقال لنفسه:"دعني أنظر إلى الوضع عن قرب".

فتسلق من فوق سور المنزل وسار حوله فشعر بعدم وجود أحد في المنزل، فاقترب من الأبواب فوجدها موصدة. فعرف أنه لا أحد يعيش فيه. فجلس يفكر: هل حدثت مصيبة ما هنا؟ أين ذهب الجميع؟

فجلس فيليب على عتبة البيت يفكر. وكان الهدوء يسود المدينة وتسمع بعض الأصوات هنا وهناك. كأصوات إغلاق الأبواب وسعال الرجال وحديث الناس.

فسمع فيليب أغنية تغنيها فتاة في مكان قريب منه وتقول: أين أنت يا عزيزي فيليب.. يا ليتني أراك ولو للمحة... يا ليتني أبادلك الحديث ولو بكلمة...

فاستمع فيليب إلى كلمات الأغنية وعرف أنها عنه، ولكنه لم يعرف من التي تغني، وكان صوتها حنوناً. ثم سمع صوتاً آخر غاضباً، يبدو أن أم الفتاة قد صاحت عليها وقالت: عدت ثانية إلى أغانيك. الناس ناموا منذ زمن وأنت ما زلت تغنين لفارسك. سوف أمسكك من جديلتك وأضربك ولن أنظر أنك أصبحت أطول من أمك، ألا يخجلك تصرفك؟

فأدرك فيليب من التي كانت تغني الأغنية. ففي بيت جيرانهم كانت تعيش فتاة جميلة القوام وواسعة العينين ومرحة الطبع وكانت تدعى آليونا، وكانت تصغر فيليب بأربع أو خمس سنوات. فكان يعتبرها صغيرة ولم ينتبه إلى أنها كبرت وصارت صبية جميلة تعطي من أجلها كل شيء، فما بالك إذا كانت تغني لك أغنية كهذه.

ثم هدأت الأصوات وانقطعت الأغنية، ولكن فيليب شعر أن آليونا لم تبتعد عن السور بل ما زالت جالسة على عتبة منزلها.

فجذبه صوت الفتاة الحنون. فخرج من منزله وسار باتجاه كوخ الجيران ونادى الفتاة بهدوء: آليونا...

فبدا على الفتاة أنها تنتظر نداءه منذ زمن بعيد فردت عليه فوراً وقالت: ماذا ستقول لي يا فيليب؟

فاستغرب فيليب وقال: كيف عرفتني في العتمة؟

فضحكت وقالت: أستطيع رؤيتك في الظلام كما أراك في وضح النهار.

ثم تركت المزاح جانباً وقالت: قد رأيت بجعتيك عند حلول المساء وفكرت أنك ستأتي قريباً إلى المدينة. فجلست أنتظرك وأغني لك كي أحذرك.

فروت آليونا لفيليب كل شيء بالتفصيل كما حدث. فقد توفيت الجدة أوليانا في الربيع الماضي، ورغم أن الوالي كان غاضباً إلا أنه لم يزعج أحداً من عائلة فيليب. ولكن لسوء الحظ أن الإقطاعي ستروغانوف نفسه قد حضر إلى المدينة وما إن عرف بأمر هروبك حتى صرخ في وجه الوالي أمام الناس: يا لك من غبي، أريدك أن تجعل الأمر عبرة للآخرين كي يعود الهاربون بأنفسهم ويقدمون وثيقة الاعتذار.

وأمر مباشرة بإحضار تيموثي مع أولاده وجلدهم أمام الناس كي يعرف الجميع ماذا سيحل بأسرهم في حال هربوا من العبودية، ثم أمر بإرسالهم إلى أصعب الأعمال وهو تحميل أكياس الملح إلى المرفأ، ووضع يده على كل أملاكهم.

كما سأل ستروغانوف عن الأشخاص الذين كانوا يحرسون بوابة المدينة في اليوم الذي هرب فيه فيليب وأمر بجلدهم أيضاً وإرسالهم إلى المرفأ لتحميل أكياس الملح، ولكنه لم يعاقب أسرهم.

وقبل أن يغادر المدينة أمر ستروغانوف بجمع الناس وهددهم قائلاً: الذي يرى الهارب فيليب ولا يخبرني سأعاقبه بنفس الطريقة.

ثم وصلت أخبار تقول بأن تيموثي لم يتحمل الجلد وتوفي بعد فترة قصيرة ولكن الأخوين ما زالا على قيد الحياة.

أما ابنة الوالي فقد تزوجت بعد فترة المشرف العامل عند عائلة ستروغانوف. وكانت تتفاخر في يوم عرسها أمام صديقاتها بأنها تستطيع أن تخدع أي شاب دون أن يرمش لها جفن. وأن أي شاب سيستجيب لأول نداء وسيأتي إليها حالاً. فقد ناديت في الربيع الماضي الريان فيليب إلي وأخبرت والدي بذلك كي يلقنه درساً لا ينساه. كي يعرف مكانه.

فقال فيليب لآليونا: شكراً لك يا آليونا فقد نورت لي طريقي. وبت الآن أعرف ماذا أفعل. فطالما أن ستروغانوف ظلم عائلتي فلن يلق مني أي خير. أما تلك الأفعى فسأدوسها بقدمي. فلم أكن أعرف أن بجعتي الجميلة وعروسي الرائعة تعيش في بيت الجيران.

فقالت له آليونا: قل كلمة واحدة وأذهب معك فوراً.

ففكر فيليب وقال: لا يا آليونا هذا ليس مناسباً. فأنا أرى أن طريقي صعب، ولا يمكنني السير فيه ومعي عائلة.

فقالت آليونا: حسناً إن كان ذلك يناسبك أكثر فاذهب بمفردك ولن أعيقك.

فشعر فيليب بالحزن وقال: ولكنك يا آليونا انتظريني سنة أخرى.

فصاحت آليونا فرحة: هذا الأمر مؤكد، فليس عندي أحد غير، ولن يكون في أفكاري أحد غيرك.

فسالت دموعها من شدة التأثر كما هي عادة الفتيات، وناولته رزمة وقالت: خذ يا عزيزي فيليب هذا الخبز من قمح مدينتك، وهذا القميص والحزام من صنع يدي، كي ترتديهما ولا تنساني.

فدهش فيليب لقلب الفتاة الذي أخبرها مسبقاً بقدومه، وشعر بأن عينيه ستدمعان أيضاً فقال: لا تلوميني يا حبيبتي إذا سمعتِ الناس يتحدثون عني بالسوء.

فقالت آليونا: لن أصدق أي سوء عنك. والذي سيسيء إليك سيصبح هو السيئ بالنسبة لي. فقد أحببتك نقي النفس وستبقى كذلك بالنسبة لي أبداً.

فافترقا عند هذا الحد، وغادر فيليب ولم يره أحد بعد ذلك. وبعد فترة انتشر صيت يقول بوجود أناس أحرار ثائرين على أراضي الإقطاعي ستروغانوف.

فقاموا في أحد الأماكن بتحرير حمالي الملح، وفي مكان آخر قتلوا المشرف ورموا زوجته الشابة من نافذة الطابق العلوي وحرقوا منزلهما.

وقالوا إن هؤلاء الثوار سكنوا مغارة على ضفاف النهر في نهاية النهر الأبيض ولا يسمحون لقوافل ستروغانوف بالمرور. وإن قائد هؤلاء الثوار فيليب الربان.

ومن الطبيعي أن عائلة ستروغانوف أصيبت بالقلق. فجهزوا جيشاً كاملاً. فاشتد الأمر على الثوار فغادروا تلك المناطق، ولم يعد الناس يتحدثون عن فيليب.

إلا آليونا لم تنسه وكانت تغني وتقول: أين أنت يا طير البجع؟ وأين تسبح هذه الأيام؟

ومهما حاول والدا آليونا أن يقنعاها بالزواج لم ترض، ولم يكن لديها الكثير من العرسان، فهي رغم كونها جميلة وسمعتها طيبة إلا أنها كانت طويلة القامة بحيث قليل من الشبان يناسبها طولاً، وكانت تمزح بهذا الشأن وتقول: هذا العريس لا يناسبني، أخشى أن أدفعه صدفة بمرفقي فأسقطه أرضاً ونصير حديثاً لكل المدينة.

وهكذا بقيت آليونا وحيدة، وأصبحت كعادة اللواتي مثلها خياطة وحياكة ماهرة لا يوجد في المدينة من هي أفضل منها.

كما كانت تحب الاهتمام بالأطفال الصغار، وكان حولها دوماً الكثير من الأطفال، وكانت تعرف كيف تسليهم وتغني لهم الأغنيات وتحكي لهم الحكايات، وكان الأطفال يحبونها، وأمهاتهم لقبوا آليونا بفرحة الأطفال، وكنّ يحاولن إرضاءها بشتى الطرق.

ولكن العمر يأخذ حقه من كل الناس، وكبرت آليونا وغزا الشيب شعر جديلتها، ولكن عينيها صارتا أكثر اتساعاً وجمالاً.

وكان الإقطاعيون القدامى من عائلة ستروغانوف قد ماتوا جميعاً، وحل محلهم أبناؤهم، وزاد عدد سكان تشوسوف. وجاء ابن خان سيبيريا وهاجم مدينة تشوسوفسك فجأة وصد السكان هجومه بصعوبة، فتذكر الشيوخ فيليب بهذه المناسبة.

فقالوا: لو كان فيليب هنا لعرف مسبقاً بمجيء الأعداء وجهز لهم مفاجأة لاستقبالهم، ولكانوا نسوا الطريق إلى مدينتنا. فقد كان إنساناً بارعاً في هذا المجال، وعبثاً قضوا عليه.

وبعد ذلك انتشرت الشائعات تقول بمجيء القوزاق الأحرار القاطنين على نهر الفولغا فوق قواربهم إلى أراضي ستروغانوف، ويقودهم القائد يرماك.

وكان صيت هذا الإنسان رائعاً على امتداد نهر الفولغا. فيهابه تجار بخارى والأراضي الأخرى، ويتجنب خدم الملك ورعاياه المناطق التي يتواجد فيها. وجيش هذا القائد من الصنف الأول.

فلم يكن من عاداته أن ينهب الناس ومنع جنوده من ذلك ، وشكل جيشه على هذا الأساس. فمن يخل بهذه القاعدة يتم طرده مباشرة من الجيش.

فيقول القائد يرماك: لسنا بحاجة لأشخاص لديهم ضعف أمام النهب، فكيف سيثق بك رفاقك إذا كنت لا تهتم إلا بنفسك. فاذهب حيثما شئت وحافظ على ألا تصادفني في طريقك وإلا سيكون الحديث معك قاسياً.

وكانت كلمة القائد متينة. فلا يرحم الذي لا كلمة له. وكان يقول: أن عدم صيانة الكلمة ليس أمراً بسيطاً، لأنه يمكن أن ينشر الخلاف في القطعة. وكان القائد حريصاً على أن تكون القطعة موحدة والخزنة موحدة وإناء الطبخ واحداً.

ولهذا لقبوا القائد بيرماك، فهذه الكلمة في اللغة التتارية تعني القدر الذي تأكل منه القطعة كلها. وقيل أيضاً إن القائد يرماك لا يحب أن يربط جنوده أنفسهم بالأسرة. فهو يعيش وحيداً ويدعو الآخرين إلى ذلك فيقول: دربنا صعب ولا يناسب الآسرة وتربية الأطفال.

فتسمع آليونا هذه الأحاديث وتستغرب: كلمات فيليب ومن عائلة تيموثي، أيكون هو فيليب حبيبي؟

ومع مجيء الخريف تسربت الشائعات التي تقول: وصل القائد يرماك مع جيشه إلى مدينة ستروغانوف عبر نهر الكاما، وسيبحرون على الزوارق نحو المجاري العليا لنهر تشوسوف ليقاتلوا خان سيبيريا، وقريباً سيصل القائد مع رجاله من القوزاق إلى مدينة تشوسوفسك.

وكان من الطبيعي أن ينتظر السكان جميعهم مجيء القائد وجيشه، وعندما عرفوا باليوم الذي سيحضرون فيه اجتمع الناس كلهم على ضفة النهر، وركضت آليونا معهم.

وأخيراً بانت القوارب وهي تسير بسهولة في المياه الربيعية وكان الجنود يغنون الأغنيات، وعندما اقتربوا أكثر انتشرت صيحات الإعجاب بين الناس وكأنهم رأوا مشهداً غريباً.

فنظرت آليونا ورأت أمام القارب الأول تسبح بجعتان وعلى رقبة كل منهما خرزة، عند أحدهما حمراء وعند الآخر زرقاء.

وعندما اقتربت القوارب من الشاطئ حلقت البجعتان ودارتا حول المدينة وغادرتا عند المغيب.

نزل القائد أولاً إلى ضفة النهر، وكان عمره قد ناهز الخمسين، وانتشر الشيب في لحيته، ولكنه كان محتفظاً بجماله، طويل القامة وعريض المنكبين والحاجبين وعينيه مرحتين وحادتين.

وكان يرتدي لباساً بسيطاً كجنوده. وفقط سيفه كان مرصعاً بالفضة ومطعماً بالأحجار الكريمة.

نظرت آليونا وعرفته، إنه هو ولكنها لم تجرؤ على التعرف إليه، وعندما أمعنت النظر رأت أنه يرتدي القميص والحزام الذين خاطتهما له، فكادت أن تسقط من شدة المفاجأة ولكنها استطاعت المحافظة على توازنها ولم تنطق بكلمة واحدة.

بينما رأى فيليب بعينيه الحادتين آليونا وهو على ظهر القارب، ورأى من ثيابها أنها لم تتزوج.

فألقى القائد التحية على الشعب ثم اقترب من آليونا وانحنى لها انحناءة كبيرة ولمس بيده الأرض وقال: لك انحناءتي العميقة من القائد القوزاقي الحر يرماك، وتعرفين اسمه الآخر. فلا تلوميني يا بجعتي على أنني تأخرت في مجيئي إليك. فلم أقضِ برغبتي كل هذا العمر في الإبحار عبر الأنهار الدنيا، فقد كنت شاباً وكانت لدي رغبة في الإبحار عبر الأنهار العليا. فلا تنزعجي مني لهذا السبب، فلم أنسك ولم أخلع عني قميصك وزنارك لا في الحرب ولا في العيد.

فتحدثا وفهم الناس من يكون القوزاق من نهر الدانوب المدعو بالقائد يرماك، وأين كانت تنتظره حبيبته.

بقي القائد يرماك مع جيشه في مدينة تشوسوف ثلاثة أيام. فتحدث مع آليونا عدة مرات خلال هذه الأيام.

وروى لها كل ما حدث معه خلال غيابه عنها، وكيف حرر أخوته وأصدقاءه من العبودية وكيف أغرق قوافل عائلة ستروغانوف النهرية، وكيف قضى عمره حراً وهو يبحر في نهر الفولغا.

كما شرح لها سبب مجيئه إلى مدينة تشوسوف.

قد كسبنا الكثير من الكنوز ووضعناها في خزينتنا، ولكنها لا تساوي شيئاً مقابل الكنوز التي شاهدتها بفضل بجعتي في الجبال المحيطة بنهرنا.

فقررت أن أدفع ثمن حريتي وحرية جيشي من تلك الكنوز، فإن نجحنا في ذلك كان به، وإن فشلنا فستبقى لنا سمعة طيبة بين الناس.

وما إن سمعت البجعتان أفكاري وكانتا غائبتين عني منذ فترة طويلة حتى ظهرتا وبان عليهما التشجيع لي للتوجه إلى حيث أردت. فبقيتا تسبحان معنا طوال الطريق وحيث نتوقف تطيران مغادرتين، ودائماً في الاتجاه الذي نبحر فيه.

وفي العيد الربيعي ويوم القديس سيمون، استعد القائد لمتابعة رحلته، فانضم من مدينة تشوسوفسك عدد كبير من المقاتلين إلى جيش القائد. وخرجت العائلات تودع الجيش.

وكانت آليونا تسير بجانب القائد، ورغم أنها قد تقدمت في السن إلا أنها ما زالت محتفظة بجمالها، فارتدت ثياباً أنيقة وزينت نفسها حتى بدت مسرة لعين الناظر.

كما أن القائد أيضاً ارتدى ثياباً أنيقة بهذه المناسبة، فقد كانت قبعته حمراء وثوبه فاخراً وقميصه من الحرير وسيفه لامعاً، ورأى الناس أنه ارتدى زناراً جديداً، عريضاً وعليه نقش رائع يصور بجعتين تسبحان في مياه زرقاء.

لا شك أن آليونا قد أهدته الزنار ليحفظه في طريقه الطويل.

وهكذا سارا كلاهما رائعَيْ الجمال وطويلَيْ القامة وجميلين كيوم خريفي هادئ. وحولهما الأطفال الذين كانت تدللهم آليونا. فقد كانوا يريدون التواجد إلى جانب القائد والسير معه في الشارع.

وما إن وصل القائد إلى الضفة حتى حطت البجعتان على ضفة النهر واتجهتا نحو المجرى الأعلى وصاحتا بلغة البجع وكأنهما تقولان له: حان وقت الإبحار أيها القائد.

فودع القائد الناس وودع آليونا وداعاً خاصاً وركب القارب وأمر بالإبحار.

في البداية كانت تصل الأخبار الجيدة كيف حقق القائد يرماك انتصارات على خان سيبيريا واسترجع جميع المدن، وأن القيصر سامح القوزاق بجميع ذنوبهم مكافأة لهم على انتصاراتهم وأرسل لهم هداياه.

وحكوا أن القيصر العظيم أمر بصنع قميص للقائد يرماك من الفضة ومزين بنسرين ذهبيين.

واستغرب صناع المعدن لدى الملك أوصاف طول القائد الضخم ولكنهم رغم ذلك صنعوا له القميص وفق القياس المطلوب.

فقد كان يرماك عظيم الطول وقوي الجسم. وكانت آليونا تفرح لهذه الأخبار، وتخبر الأطفال الذين يتواجدون حولها دائماً عن شجاعة ونجاح القائد.

وبقيت آليونا تسلي نفسها بهذه الأخبار مدة سنتين، ثم حدث تغيير واختفت الأخبار عن الجيش.

فانتظرت آليونا طويلاً وعند الخريف جاءت الأخبار المأساوية إلى المدينة، تقول: لم يبق الكثير من القوزاق أحياء والقائد يرماك توفي أيضاً.

فقد استطاع التتار التغلب عليه بفعل وجود خيانة في الجيش، فهاجموه ليلاً عندما كان القوزاق نائمين في سفنهم، وكان التتار كثيري العدد.

ويبدو أن القائد كان يحاول القفز من قارب إلى آخر فأخطأ المسافة ووقع في المياه العميقة.

فلم يستطع الخروج من الماء وهو يرتدي القميص الفضي الثقيل الذي أهداه إياه القيصر.

ولم يكن بمقدور البجعتين إنقاذ القائد لأن الحادثة جرت في الليل والبجعات لا ترى ليلاً.

استمعت آليونا إلى كل ذلك ولم تنطق بكلمة واحدة، وبعد فترة بكى أطفال المدينة لأن آليونا ماتت.

فأسرع الأهالي ليتبينوا الوضع وفعلاً وجدوا آليونا ميتة، فقد كانت مستلقية عند النافذة وترتدي نفس الملابس التي ودعت فيها القائد.

فبكى الناس حزناً على القائد وحبيبته، ولم يعرف أحد سبب وفاة آليونا المفاجئ.

فقالوا: قد توفيت بطريقة البجع. فإذا مات أحد الزوجين يموت الآخر.

ولم يعرف أحد إلى أين غادرت البجعتان، وهي طيور مقدرة في مناطقنا، فالذي يؤذي بجعة تلحقه المصائب حتماً.